روايات عبير
sarah
آن ميثر
الماضي لا يعود
www.liilas.com
Sara
٢٢
liilas.com

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 22

الماضي لا يعود

أخطأت مادلين مرة في شبابها، الا أنها هرعت تحتضن الثمرة بكل ما أوتيت من حب وحنان وتضحية . وعملت جهدها كي تنشأ ابنتها ديانا في جو عائلي لاتشوبه شائبة . فتزوجت رجلا لم يكن بحاجة الى زوجة بقدر حاجته الى مدبرة لمنزله . لكن القدر شاء أن يموت هذا الرجل وتبقى مادلين أرملة مع ابنتها الوحيدة ديانا.

في عالمها رجل واحد هو العم أدريان الذي يتمتع بكل الصفات الأبوية ويرشح نفسه ليكون زوجا لمادلين في المستقبل . لكن ظهور رجل يدعى السيد فيتال الرئيس العام لشركة سيارات أجنبية في المنطقة حيث تعيشان ، قلب المقاييس وغيّر الاحتمالات . كيف تتصرف مادلين حيال ابنتها التي ربيت في جو لا يعرف المفاجأة ، خاصة أن أمها انجذبت بقوة الى ذلك الايطالي الغريب ... وتتأثر ديانا الى حد اليأس والفرار . لكن من ينقذ حياتها في اللحظة الحاسمة ؟ وكيف يتأكد الجميع في هذه الرواية أن الماضي لا يعود ؟

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية
PILGRIM'S CASTLE

١ - البنت وأمها

طوت مادلين آخر رسالة ووضعتها في الظرف وأغلقته سعيدة شاكرة، وتنفست الصعداء. ثم وضعت الغطاء البلاستيك على آلتها الكاتبة، وأغلقت درجها بالمفتاح، ودست المفاتيح في حقيبتها. وبينما كانت تسير إلى الباب التقطت سترتها المصنوعة من الجلد وارتدتها وهي تمر ببصرها في أرجاء الغرفة لتوقن من أن كل شيء مرتب في عطلة نهاية الأسبوع. وعندما ارتاحت إلى ذلك فتحت الباب وخرجت.

كانت الممرات الطويلة، التي كسيت أرضيتها بالمطاط، تمتد أمامها، وتحيط بها على الجانبين فصول دراسية ومزيد من الممرات. وكانت تبدو الآن بغير الحشود المثرثرة من الأولاد، عارية مقفرة لاحياة فيها. وفجأة ظهر جورج جاكسون، بواب المدرسة، من أحد الأركان الكثيرة واتخذ طريقه إليها. فابتسمت مادلين حين رأته يقترب، إذ كانت ولوعة بالحارس المسن، الذي كان يرعى الأمور بكفاءة عالية.

تساءل وهو يقترب منها:

«ألم تذهبي بعد ياسيدة سكوت؟ تعلمين أن الساعة تجاوزت الخامسة.»

أومأت مادلين برأسها، وقالت:

«أنا ذاهبة الآن يا جورج. تركت الرسائل القليلة الأخيرة على مكتبي كالعادة.»

قال جورج، وهو يبحث في جيوبه عن غليونه:

«حسناً، سأتولى أمرها، اذهبي الآن ياعزيزتي، فإن ابنتك ستتساءل أين أنت.»

قالت مادلين ، وهي تبتسم مرة أخرى:

«قد تكون على صواب ، أراك يوم الاثنين.»

ومضت عبر الممرّ ، وكعب حذائها لايكاد يحدث صوتاً. ومع أن المدرسة كانت خالية ، كان فيها مايجذبها إليها. وكانت تستمتع بالعمل هناك كسكرتيرة للناظر- أدريان سنكلير . كانت سكرتيرته لأكثر من خمس سنوات الآن ، منذ جاءا إلى أوتربيري .

وكان مدخل هيئة التدريس يفضي إلى مكان وقوف السيارات ، التابع للمدرسة. و مادلين، التي تمتلك دراجة بخارية سكوتر مشت بسرعة إلى حيث كانت اوقفتها. وكانت الدراجة البخارية هي الآلة الوحيدة المتروكة في المكان ، وبينا كانت تدفع بقدمها أداة التشغيل، ارتعدت. كان الوقت في أواخر مارس/آذار ومع ذلك كان الهواء لايزال بارداً برودة الثلج في الصباح والمساء. ولم يكن ركوب الدراجة البخارية يبعث على البهجة كأشهر الصيف الدافئة.

مضت راكبة إلى باب الخروج، وتباطأت وهي تصل إلى الطريق الرئيسي. كان المرور يتدفق بجوارها، وكان معظم المارين من العمال الذين غادروا مصنع السيارات القريب، ومع أن أوتربيري كانت بلدة صغيرة ، إلا أن المصنع الجديد الكبير الذي قام على مشارفها زاد من حجم التعداد إلى حد كبير. وكانت هناك بيوت تبنى تدريجياً ليقيم فيها الرجال الذين كانوا في الوقت الحاضر يرتحلون إلى عملهم من أماكن بعيدة.

وعندما توقفت حركة المرور قليلاً دخلت مادلين مجراها الرئيسي، وغيرت سرعتها وكانت تستمتع بشعور الحرية الذي تتيحه لها الدراجة البخارية. أما المركبات المنذرة بالخطر، التي كانت تندفع حشودها بجوارها فلم تكن لتضايقها كثيرا. لم تشعر بأنها عصبية، ولم تكن كذلك أبداً وهي تقودوكان ركوب الدراجة البخارية لايستغرق منها سوى جهد ضئيل.

وفجأة مرت بجوارها مسرعة سيارة حمراء ضخمة ، وبدا جسمها الثعباني المنساب دليلاً أكيداً على سرعتها غير المحدودة. وعبثت مادلين والتيار الناجم عن مرور السيارة يكتنفها كموجة طويلة من أمواج المحيط. ولم تكد تستقيم حتى اضطرت إلى تشغيل فراملها بكل ما تملك من جهد في الوقت الذي بدا فيه

ذيل السيارة يندفع بعنف سريع نحوها. كان السائق قد توقف بغتة بسيارته، وكان مصباحاها المزدوجان يشعان كمنارة ويضيئان الطريق حتى في وضح النهار.

كانت مادلين مفرطة القرب. فوضعت قدميها على الأرض لتجرب الوقوف، ولكن الدراجة البخارية كانت تنزلق، وفي الثانية التالية ارتطمت بها. لم تكن خبطة شديدة، فقد وفرت عليها فراملها ذلك، ولكن الدراجة البخارية انقلبت، واستقرت مادلين على الأرض وهي تشعر بالحماقة.

وبينا كانت تحاول الوقوف امتدت يدان قويتان وساعدتاها، يرافقها صوت يبدو كالثلج المتسحق، يتساءل:

«ماذا تظنين أنك تفعلين؟»

اتسعت عينا مادلين وحدقت في الرجل الذي يواجهها غاضبة . هل هو في الحقيقة يلومها ؟ عجباً ، إنه هو الملوم!

واصل كلامه بلا تردد ، ولهجته تبدو غير ودية :

«هنا طريق عام ، وليس ملعب أطفال!»

ثم أضاف مكملاً :

«يجب أن تفكري مقدماً ، أو تبقي بعيدا عن الطريق.»

ابتدرته مادلين في سخط

«انتظر لحظة، إنها غلطتك أنت بسبب وقوفك بهذه السرعة البالغة.»

قالت ذلك بغضب بينا كانت عيناه الساخرتان تتفرسانها. وتساءلت مادلين من أي جنسية يكون ؟ فقد كانت هناك لكنة في صوته، ضعيفة لكن لاتخطئها الأذن، ليست انكليزية بالطبع. ثم قالت:

«هذا الطريق لم يجر إنشاؤه لسباق السيارات. وعادة ما يبدي سائقو السيارات مقاصدهم بإشارات، تكون بمثابة تحذيرات مسبقة لمن يتبعهم في الطريق.»

قاطعها قائلاً:

«أدرك ذلك، حسناً، أعترف بأنني توقفت فجأة، لكنني لو لم أفعل لحدث ماهو أشد خطورة، وإذا سرت إلى مقدمة السيارة، فسترين بنفسك.»

مشت مادلين ببطء بعد أن اعتدلت قامتها، وإن كانت تشعر بهزة بسيطة،

ولفت حول الوحش الأحمر، ثم توقفت ودفعت بيديها في جيبي سترتها. وكانت هناك ثلاث سيارات متصادمة في وسط الطريق، وكان من الواضح أن إحداها ارتطمت بالسيارتين الأخريين. وبينما كانت تقف هناك، كانت إحدى سيارات الشرطة تأتي بجلجلة الصوت عبر الطريق من أوتربيري، ولكن لم يكن هناك فيما يبدو من أصيب إصابة خطيرة لحسن الحظ.

قال رفيقها، وهو يبدو مسرورا الآن :

«حسناً ؟ هل هذا يقنعك بأن دوافعي كانت معقولة؟»

هزت مادلين كتفيها ، وقالت :

بالطبع، معذرة لأنني قفزت إلى النتائج، ولكن الدراجة البخارية ليس لها في الواقع قوة فرامل سيارة مثل هذه.»

قالت ذلك وهي تشير نحو السيارة.

انحنى الرجل برأسه، ثم قال متأخرا قليلاً:

«هل أصبت ؟»

لم تستطع مادلين أن تكتم ابتسامة ، وقالت وهي تهز رأسها:

«لا ، أشكرك ، فإنني لا أزال قطعة واحدة ! خير لك أن تفحص سيارتك. فالأرجح أن تكون في حاجة إلى إصلاح.»

ابتسم كذلك بشيء من السخرية ، ووجدت مادلين نفسها تفكر كم هو جذاب . كان طويلاً ذا منكبين عريضين يستدقان إلى ردفين نحيلين . وكان أسمر البشرة بفعل الشمس ، وكانت عيناه زرقاوين غامقتين . وشعره أسود فاحماً، وهذا ما جعل مادلين تفكر في أنه ربما يكون اسبانيا أو ايطاليا. وكان يتحرك برشاقة وسهولة ، وكان سلوكه المتراخي ، يخفي وراءه فيما يبدو حيوية مكبوحة. وكانت حياكة بذلته خالية من العيوب ، حاكتها كما هو واضح يد صانع ماهر. وكانت لكنته الضئيلة وتمكنه الممتاز من الانكليزية يشيران فيما يبدو إلى أنه تلقى تعليما باهظ التكاليف. تساءلت من يكون ، فقد كانت تعرف بمجرد المنظر معظم ذوي الثراء في أوتربيري . ولكن هذا الرجل غريب .

قال وكأنه يدرك خواطرها :

«إنني مرتبط بمصنع شريدان ، ولهذا فلا أكاد أعتقد أننا يجب أن نشغل أنفسنا

بإصلاح سيارتي وهي لم تتأثر كثيراً ، كما ترين.»

كان شريدان مصنع السيارات الذي يقع على الطريق مؤسسة إيطالية أمريكية ، وأول مشروع مشترك من نوعه للايطاليين والأمريكيين في انكلترا. وكان هذا يفسر لكنته أيضا فيما يبدو. من الواضح أنه ينحدر من أصل إيطالي ، ولكنه قضى أعواما كثيرة في الولايات المتحدة على الأرجح.

«هذا حسن إذاً.»

قالت مادلين ذلك وهي تنحني لترفع دراجتها البخارية وتلتقط حقيبتها، التي كانت لحسن الحظ مغلقة. ولكن الرجل حال بينها وبين ذلك، ورفع الدراجة البخارية بلا جهد وتفحصها بعين خبيرة. وقال :

«دراجتك البخارية تبدو سليمة، وإذا حدث فيها شيء فما عليك إلا أن تحدثينا تليفونياً ،وسأعمل على إصلاحها.»

واعطاها الرقم.

شكرته مادلين ، وهي تفكر الآن كم تبدو مشعثة الشعر مغضنة الملابس. وبينما كان يسلمها الدراجة البخارية ، كانت تدرك تماماً لغة عينيه وهما تطريانها بشكل ساخر ، وشعرت بوجنتيها تتوهجان من فرط الحرج.

قالت متلعثمة:

«أشـــ كرك..»

ثم دفعت بقدمها أداة التشغيل . وارتاحت لأنها عملت من أول مرة، وقالت وهي تجلس عليها:

«وداعا...»

«إلى اللقاء يا؟ مس ...مس؟»

قال ذلك وابتسم وهو ينتظر إجابتها.

قالت تصححه :

«إن الاسم هو مسز سكوت .»

ثم انطلقت وهي تبتسم ابتسامة يسيرة ، وتعي عينيه وهما ترقبانها إذ تنطلق على الطريق ، وتمنت وهي تفعل ذلك ألا ترتكب أخطاء أخرى.

وخلال ثوان كان يمر مسرعاً بجوارها وهو يرفع يده لاشعارها بوجوده. فلم

النساء لابد فكرن فيه على النحو نفسه. وبالنسبة الى دخله فيبدو أنه إنسان قادر.
ومع ذلك فلا يستطيع الاستفادة من هذه القدرة، بعكس النساء الكليلات أو الكئيبات، فإن صالون التجميل، ومصفف الشعر، وجراح التجميل يمكنهم أن يعالجوا ذلك. أما هو فمن خلال سخريته التي تلوح معالمها حول عينيه وفمه، يبدو ضجراً بحياته ومدركا في الوقت نفسه لجاذبيته.

لوت مادلين قسمات وجهها وهي تتطلع إلى نفسها في المرآة، وقد سرتها خواطرها. يا للسماء! إنها تتصرف كطفلة لمجرد أنها قابلت رجلاً كان بلا جدال من خارج دائرتها! وما لبثت أن دست ذراعيها في سترة منزلية، وبينما كانت تعقد أزرارها، نحت عن ذهنها كل خواطرها عن الرجل... مهما كان شعورها، فإن ديانا كانت وستظل دائماً موضع اعتبارها الأول، مسكينة ديانا .... إنها لم تبرأ في الحقيقة، رغم كل شيء، من صدمة فقدان جو عندما كانت بعد في السابعة من عمرها.

وبينما هي تخرج من غرفة النوم، سمعت صوت مفتاح يدار في قفل الباب منبئاً بوصول ابنتها، واندفعت ديانا بمرح وابتهاج إلى الداخل وهي تبدو نحيلة كأنها الطبعة الأحدث من مادلين، فيما عدا أن شعرها كان بنياً غامقاً.

كانت ديانا في السادسة عشرة، تدرس في الكلية التجارية في أوتربيري. وكانت كثيراً ماتعود الى البيت متأخرة، أن الكلية كانت تجري تمارين على المسرحية التي تعرض في نهاية الفترة الدراسية، وكانت ديانا تمثل فيها دوراً رئيسيا.

لم تكن ديانا في طول مادلين، وكانت تترك شعرها طويلا منسدلا وفق الموضة. وكانت ترتدي سترة رمادية غامقة، وتهز في يدها حقيبة من التارتان، القماش الصوفي المربع.

قالت تحيي مادلين، وهي تطوح بحقيبتها على أحد المقاعد:

«أهلا يا أمي .... أليس الجو باردا الليلة؟ إنني أتجمد»

أومأت مادلين برأسها، وقالت موافقة:

«نعم، لايشبه جو الربيع كثيراً. هل كانت التمارين جيدة؟»

قالت ديانا بلا اكتراث:

«إلى حدما. إن الآنسة هوكس تحاول دائماً أن تدير العرض وكأنه مهرجان عسكري. ولكن فيما عدا ذلك كان كل شيء على مايرام، ويبدو أنه صاحب...»

ضحكت مادلين في خفوت، وقالت:

«أنا أعتقد أن العرض سيكون ممتازاً لاعليك، سينتهي الأمر قريباً. الفترة الدراسية تنتهي في ثلاثة أسابيع، أليس كذلك؟»

«بلى والحمد لله. وسيكون أمامنا عندئذ أسبوعان كاملان لانفعل فيهما شيئاً، سيكون هذا أمراً رائعاً»

ابتسمت مادلين ودخلت المطبخ. وبينما كانت تعد البقول وتضع قطع اللحم تحت الشواية قررت ألا تقول لديانا شيئاً حول سقوطها عن الدراجة البخارية. فلم يحدث ضرر لها بأية حال، هذا إلى أن ديانا كثيرا ماتقول إنه يجب على مادلين أن تستخدم الأوتوبيس في ساعات ذروة المرور. وكانت ديانا تبدو أحيانا مستأثرة بوالدتها قليلاً، ولعل ذلك يرجع إلى أنها كانت قريبتها الوحيدة. ولم تكن مادلين تريد أن تسبب لها مزيداً من القلق.

تناولا طعام العشاء في غرفة الجلوس. وكان أحد أركانها تم تحويله إلى خلوة لتناول الطعام بإضافة ستار يحجب المائدة عن الرؤية. أعدت ديانا المائدة بينما كانت مادلين تضع الوجبة في الأطباق، وجلسا معا بعد ذلك، ترقبان التليفزيون في كسل بينما تناولت مادلين سيكارة مع قهوتها.

تساءلت ديانا وهي تتمطى في كسل:

«هل أغسل الأطباق؟ هل يأتي إلينا عمي أدريان الليلة؟»

«أعتقد أن أدريان سيأتي، وأكون شاكرة إذا قمت بغسل الأطباق، فسأقوم بتغيير ملابسي إلى شيء مناسب أكثر»

ابتسمت ديانا ونهضت على قدميها، ونظرت إليها مادلين وتساءلت في تردد:

«هل ...أنت خارجة الليلة؟»

«نعم. طلب مني جيف الذهاب إلى نادي السبعينات.»

أومأت مادلين برأسها:

«أوه...»

تلبث أن شعرت بنفسها تسترخي مرة أخرى.

وعندما وصلت إلى وسط أوتربيري انعطفت يميناً عند إشارة المرور صوب هاينوك. وكانت هاينوك إحدى ضواحي أوتربيري، وقد قام فيها عدد كبير من المساكن الجديدة، بما فيها مجمع الشقق الذي كانت تقيم فيه مادلين مع ابنتها ديانا. وكانت الشقق في إيفنوود غاردنز تطل على نهر أوتر، وشعرت مادلين بغمرة سرور عندما وصلت إلى بيتها. كانت شقة لطيفة كما كانت أوتربيري نفسها بلدة بهيجة.

كانت الشقة في الطابق الأول. وبينما كانت تفتح الباب وتدلف إلى المدخل الصغير، نادت:

«ديانا ... هل أنت في البيت ؟»

لم يأتها رد فأغلقت الباب وخلعت سترتها. وكانت غرفة الجلوس مفتوحة على المدخل، وهي غرفة كبيرة ذات جدران ملساء مطلية بالغراء زينتها مادلين بعدة لوحات معدنية. وكانت سجادة الحائط، التي أنفقت فيها مادلين كثيراً من مدخراتها، ذات لون ياقوتي أزرق... وكانت التدفئة كلها كهربائية. للأسف، لأن مادلين كانت تفضل نيران المدفأة المكشوفة في غرفة واحدة على الأقل. وهنا أدارت مادلين صمام تشغيل شبكة التدفئة لأنه بالرغم من أن الغرفة كانت دافئة بالمقارنة مع الهواء البارد في الخارج، إلا أن دفئها لم يكن مريحاً. وكان جو الغرفة أليفاً، وثمة خزانة للصيني تضم قطعاً قليلة من الصيني والزجاج الممتاز. أما باقي المكان فكان مملوءا برفوف الكتب الحافلة بدورها بالروايات. وجهاز تليفزيون وجهاز موسيقى يخص ديانا كان موضوعا على منضدة في فجوة في الجدار وبجوارها مجموعة من أسطوانات الموسيقى الحديثة.

أشعلت مادلين سيكارة وأدارت التليفزيون. كانت قد تسوقت في وقت الغداء، وجلبت بعضاً من قطع اللحم التي اشترتها للعشاء ولايستغرق طهوها وقتاً طويلاً. وحملت حقيبة التسوق ومرّت بها إلى المطبخ الذي كان مفتوحاً على غرفة الجلوس، وكان صغيراً جداً. وأخرجت الطعام ووضعت الغلاية على النار. ثم عادت إلى غرفة الجلوس. كان الوقت يقارب السادسة، لهذا لم يكن لديانا أن تغيب طويلاً.

دخلت غرفة النوم التي كانت تتقاسمها مع ديانا. لم يكن هناك إلا غرفة نوم واحدة بحمام صغير وخزانة ملاصقة، وكانت الشقق مخصصة في الحقيقة لشخص واحد، لأن الشقة التي يوجد فيها غرفتان للنوم يزيد إيجارها عن عشرة جنيهات في الأسبوع، كان على مادلين أن تقنع بالشقة التي فيها غرفة نوم واحدة. ولم تكن هي لتعبأ بهذا ولكن ديانا كانت تقترب الآن من سن تجعلها تعترض على ألا تكون لها غرفة نوم خاصة. ومع ذلك فعندما وصلا إلى أوتربيري بعد وفاة جو، كانت مادلين تشعر بالشكر والحمد إذ أصبح لها مكان يخصها.

خلعت رداءها الجيرسيه ودخلت الحمام لتغتسل. وبينما كانت تفعل ذلك وجدت نفسها تتساءل عما ظنه الرجل في السيارة عنها في الحقيقة. وجدته جذاباً إلى حد كبير، ولكن كان من الممكن أن تجده كذلك أية امرأة. وتساءلت عن عمره وبدا لها أنه في أوائل الثلاثينات، ولما كانت هي في الثالثة والثلاثين، فربما كان هو كذلك في نحو سنها على الأرجح.

وبينما كانت تمشط شعرها، الذي تهدل على كتفيها عندما كانت تحل العقدة الفرنسية، تساءلت عما يكون ظنه عن سنها. كانت تعلم أنها لاتبدو بسنها الحقيقية، وكان أدريان سنكلير يقول لها باستمرار إنها تبدو كأخت ديانا أكثر منها أمها، ولكن أدريان كان يريد الزواج منها وكانت تلك طريقته.

كانت ديانا تتذمر أحياناً أيضاً، من أن مادلين ترتدي ملابس لاتتفق مع مركزها كسكرتيرة للناظر، وكأرملة محترمة. ولكن، ديانا كانت عتيقة التفكير في بعض الأمور، ولعل ذلك يرجع إلى تأثير جو إلى حد كبير.

وقررت محرجة أن عينيها هما أفضل ملامحها. كانتا رماديتين تنحوان إلى الاخضرار، تطل منهما أضواء مصفرة، وكان شعرها في نعومة الحرير وفي لون العنبر الكثيف. وكانت طويلة، مفرطة الطول على ماتعتقد دائماً، وإن كانت ممشوقة القوام بشكل لطيف على الأقل، ولم تكن شديدة النحول بارزة العظام. وكانت ترى أنها في شكلها العام أنثى متوسطة حسنة الطلعة، ولكن ليست مميزة بأي حال.

أما الرجل ... وهنا تنهدت، فهو مميز في كل شيء. وشعرت بيقين أن عشرات

«هل تمانعين ؟»

بللت مادلين شفتيها بلسانها ، وقالت :

«لا لا ، ولماذا أمانع؟»

«لاسبب، ولكنني لاحظت أنك لاتتحمسين بشأن خروجي معه.»

ابتسمت مادلين نصف ابتسامة ، وقالت:

«إنني آسفة ياحبيبتي ، لابد من ذهابك بالطبع.»

هزت ديانا كتفيها، وقالت بخفة :

«حسناً ، إنه شيء أفعله والسلام.»

ابتسمت مادلين بسخرية ، وقالت :

«نعم، وأدريان سيأتي بعد ذلك على الأرجح، قال إن عليه أن يقوم بعملية تقدير الدرجات ، ولكنني أظن أنه سيكون لديه متسع من الوقت للحضور.»

غمغمت ديانا في مكر:

«إنه يجد الوقت دائماً من أجلك.»

ضغطت مادلين على شفتيها:

«نعم ، قد يكون الأمر كذلك، ولكن هذا لايعني شيئاً ياديانا ، لايعني شيئاً على الاطلاق.»

هزت ديانا كتفيها بأسف، وبدأت تحمل الأطباق إلى المطبخ ، وأطفأت مادلين سيكارتها في منفضة السكائر وخطت إلى غرفة النوم. كانت قد بدأت تضيق بتلميحات ديانا عنها وعن أدريان . حقيقة أنها كانت تلميحات تقوم على الواقع ، ولكن مادلين لم تكن تساورها الرغبة في تحويلها إلى حقيقة.

وبينما كانت ترتدي بنطلوناً فضفاضاً أزرق غامقاً، وتضع فوقه بلوزة من الحرير ، وجدت نفسها تتمنى ، وليس لأول مرة، أن يكون جو حياً. كانت ديانا تكبر الآن وتصبح ذات مسؤولية كبيرة في نواح كثيرة. كذلك كانت تحب جو وكان جو مدلهاً بها. فقد ظل بلا زواج سنوات كثيرة قبل أن يتزوج مادلين، ثم وجد ديانا طفلة لايمكن مقاومة حبها على الاطلاق . وتساءلت مادلين الآن هل كان زواجها من جو هو الذي عجل بحالته؟ فمن المحقق أن الزواج أثقله بمزيد من المسؤوليات، وأنه عمل بجهد كبير في السنوات التي

أعقبت زواجها. ولكن مرضه لم يكن له علاج، وقال لها الأطباء كثيراً إنها جعلت آخر سنوات عمره سنوات سعيدة.

قررت أن تترك شعرها منسدلا ، وخرجت من غرفة النوم تبدو في جاذبية الشباب. وكانت ديانا تهذب ماكياجها بيد رشيقة. وكانت تضع مجرد ظلال العيون وأحمر الشفاه، ولم تكن بشرتها الزيتونية تحتاج إلى مزيد من وسائل التجميل .ألقت بنظرة انتقادية على أمها من فوق كتفها وقالت متسائلة بإشارة من يدها:

«هل يوافق عمي أدريان على ارتداء البنطلونات الفضفاضة؟»

بدت مادلين مسرورة ، وردت بخفة:

«لاأكاد أرى كيف يمكن أن تهمه هذه المسألة، أنا التي أرتديها وليس العم أدريان.»

«أعرف ذلك ، ولكن بصراحة ياأمي ، لعلك ستتزوجينه يوماً، وعليك أن ترتدي من الملابس مايتفق مع مركزك.»

«ياعزيزتي ديانا .... لست أنوي الزواج من العم أدريان ، وقلت له ذلك، وقلته لك أيضا ، مئات المرات. عجباً ، إنني في الثالثة والثلاثين ولست في الثالثة والخمسين ، ورغم أنني موقنة أنها تبدو سنا كبيرة بالنسبة اليك ، لكنني لا أنوي أن آوي إلى الكرسي الهزاز بعد!»

قطبت ديانا جبينها:

«إن عمي أدريان ليس أكبر سنا من أبي لو أنه...»

ثم توقفت .

«أوه ياعزيزتي .... أنا أعرف ذلك ، ولكن هذا كان أمراً مختلفاً.»

«كيف ؟»

تطلعت مادلين إلى ساعتها ، وقالت:

«ألم يحن الوقت لذهابك؟»

هزت ابنتها كتفيها ، وقالت:

«أظن ذلك ، حسناً ، أنت وشأنك...»

ثم جذبت سترتها المصنوعة من النوفيل وقالت:

«سأذهب إذاً.»

«حسناً ياحبيبتي اعتني بنفسك.»

قبلت ديانا وجنة أمها وانطلقت خارجة من الشقة وهي تدور حول نفسها. ودخلت مادلين المطبخ. كانت دلائل الغسل السريع من جانب ديانا للأطباق واضحة على الأرض التي تكاد تسبح في الماء، وكانت ممسحة الأطباق مشبعة بالماء.

عصرت مادلين المسحة، وتناولت المسحة الكبيرة وامتصت بها الماء عن الأرض، ومسحت الأرضية الخشب فغدت نظيفة. ثم وضعت الأطباق التي كانت ديانا قد تركتها على المنضدة، في أماكنها، وعادت إلى غرفة الجلوس.

وما كادت تستقر أمام التليفزيون حتى جلجل جرس الباب فنهضت في كسل ومضت تطرق الأرض بخفوت إلى الباب، وإذ فتحته، وجدت أدريان سنكلير ينتظر السماح له بالدخول.

وكان أدريان نحيلاً طويلاً في أوائل الخمسينات. يكبر مادلين بعشرين عاما، وأعزب. ووجد مادلين فاتنة ومرغوبة تماماً. وتحركت كل عواطفه بعنف نحو مادلين بسبب افتقارها الظاهر إلى الاهتمام الرومانسي به. وبصراحة، كانت مادلين تتساءل عما يجتذب الرجال الأكبر سناً اليها. لقد وجدت أدريان مثيراً من الناحية العقلية، ولكنه بارد من الناحية العاطفية، ولم تكن الزيجات لتقوم على العقل وحده، ولم يكن ليمضي في اتجاه آخر غير هذا الاتجاه معها.

قالت وهي تبتسم الآن:

«تفضل ياأدريان الا يزال الجو بارداً؟»

قال أدريان، وهو يدخل ويتخفف من معطفه:

«أبرد... هذه غرفة دافئة ومريحة يامادلين إنني أشعر دائما كأنني في بيتي هنا.»

«حسناً، أنا مسرورة لذلك.»

أغلقت مادلين الباب وأخذت عنه معطفه قبل أن تتبعه عبر الغرفة وسألته أن تعد له بعض الشراب فوافق، وجلس على الأريكة أمام التليفزيون في الموضع نفسه حيث كانت تجلس مادلين قبل وصوله، وانضمت إليه بعد أن سكبت الشراب.

كانت تستمتع بصحبة أدريان، ودعاباته الجاهزة، وكانت مسرورة لأنه لم يبذل أي محاولة قوية ليجعل العلاقات بينهما تتحول إلى أكثر من ذلك. كان كثيراً ما يطرق موضوع الزواج، ولكن مادلين حاولت أن توضح له من البداية أنه لا يمكن أن يكون بينهما شيء أكثر من الصداقة.

وكان أدريان يأتي إلى الشقة كلما استطاع ذلك، سواء كانت ديانا موجودة أم لا، وكان يحب ديانا، وكانت مولعة به، وهي تخاطبه بالعم أدريان منذ كانت في الحادية عشرة من عمرها، ولم تجد سبباً يدعوها إلى أن تغير ذلك الآن.

وكان يمتلك منزلاً في أوتربيري، تديره مديرة ممتازة. وكان المنزل يقع قرب مدرسة أوتربيري التي كان ناظرها. ومع أن المنزل كان كبيراً وكئيبا بالنسبة إلى رجل يعيش وحده، فقد كان يحبه. وجعله مليئاً بنخبة من التحف الفنية الكفيلة بأن تجهز متحفاً، وكانت مادلين تقول أحيانا وهي متأملة إنه لو تزوج يوماً ما وأنجب أطفالاً يجرون في البيت لأصبح في خوف دائم على مجموعته.

قال أدريان بطريقة عرضية:

«وقع حادث على طريق أوتربيري اليوم، تصادمت سيارتان ولوري، ونشر الخبر في الطبعة المتأخرة من الصحيفة.»

«أوه... أكان هناك حادث حقاً؟»

كتمت مادلين معرفتها بالحادث. فلم تكن تنوي أن تحدث أدريان، فضلاً عن ديانا، بالحادث الشخصي الذي تعرضت له لأن أدريان مثل ديانا، يعيب عليها استخدامها الدراجة البخارية على الطريق المكتظة، يفضل استخدام وسائل النقل العامة في تلك الأمسيات عندما لايستطيع توصيلها إلى المنزل.

«نعم، بعض الناس يتحركون بسرعة لاتناسب السلامة، ومعظم هذه الصدامات يمكن تجنبها بقليل من التروي.»

«أوه... إنني أوافقك.»

قالت مادلين ذلك بشيء من التوتر، وهي تجلس بجواره، وتأمل ألا يفضحها وجهها. وأضافت:

«المرور المقبل من مصنع شريدان يتحرك بسرعة بالغة.»

«بالفعل، وسيكون من دواعي سروري إتمام بناء البيوت الواقعة خلف المصنع، فبذلك لن يضطر هؤلاء المفسدون للقدوم الى المدينة ليتخذوا الطريق منها إلى لندن. إن معظم السيارات تجعل المنطقة الواقعة خارج المدرسة بمثابة حلبة سباق. وإنني لأشعر بالامتنان لأن جموعنا من التلاميذ يخرجون من المدرسة قبلهم. هل تتخيلين ماذا يكون عليه الموقف لو خرج من أبوابنا حشد من راكبي الدراجات وحاولوا الاندماج مع هذا الحشد الآخر! فلتكن السماء في عونهم!»

قبلت مادلين سيكارة عرضها عليها، وقالت، بعد أن بدأ كلاهما يدخن:

«هل ذهبت يوما إلى مصنع شريدان؟»

«كلا. لم أذهب إليه منذ افتتاحه. وذهبت يوما إلى موقعه خلال المراحل الأولى للبناء، إنه مكان هائل، ويبدو أن طاقة تشغيله عندما تكتمل تماما ستستوعب نحو خمسة آلاف رجل أحضروا عمالا عدة مهمين من إيطاليا بالطبع، ومن مصنعهم قرب ديترويت. وسمعت أن نيكولاس فيتال نفسه جاء من روما خصيصا ليطمئن على أن كل شيء يجري على مايرام. وهو هنا بالطبع في زيارة فقط، فهو الرئيس الكبير، ولعلك تعلمين أن والده هو الذي أسس هذا العمل. أما الرجل الذي يدير هذا الفرع فيدعى ماسترسون، وهو من امريكا على ماأعتقد. أحضر أسرته معه واستأجروا المنزل الذي يقع قرب هاينوك، وأعتقد أن اسمه انفلسايد.»

«أجل....إنني أعرف هذا المكان يا أدريان، إنه ضخم، ألم يكن ملك أحد الأرستقراطيين المفلسين في وقت ما؟»

قال أدريان، وهو يضحك في خفوت:

«نعم، كان اللورد أوتربيري المسن نفسه يعيش هناك منذ سنوات. تخيلي أن ينزل الأمريكيون في هذا البيت الفخم المهيب!»

ضحكت مادلين، وقالت:

«لابد أن يكون شيئاً جميلا أن يتحرر المرء من قلق المال.»

«ياعزيزتي مادلين ....إن بوسعك أن تتحرري أيضاً من قلق المال إذا سمحت لي فقط بأن أتولى رعايتك.»

«أعرف ذلك يا أدريان، وأقدره. لكنني لاأستطيع أن أرى نفسي زوجة ناظر توزع الشاي والمجاملات على أولياء أمور الأطفال. أخشى ألا أكون من هذا الطراز.»

تنهد أدريان وقال:

«هراء يامادلين، في وسعك أن تتلاءمي بسهولة، وأقول جاداً إن ديانا ستوافق على زواجك مني، فهي بالنسبة الي بمثابة الابنة.»

«أعرف ذلك يا أدريان، إنها مناصرة كبيرة لقضيتك، ولكن الأمر ببساطة هو.... إنني أتمتع بحريتي، وأهم من ذلك، أننا لانتبادل الحب.»

«وهل كنت تحبين جو؟»

قطب أدريان جبينه عندما لم تجب مادلين، واستطرد قائلاً:

«هذا إلى جانب أنني أحبك يامادلين. إن الحب للشباب، ونحن كبار ناضجون، ولسنا أحداثاً دون العشرين تتوق توقاً إلى القمر. ألا تودين أحياناً أن تسترخي، وأن تضعي قدميك إلى أعلى بدلاً من الاندفاع إلى البيت في الأمسيات؟»

تنهدت مادلين.... كل ماقاله أدريان صحيح. ستكون ديانا مسرورة إذا تزوجا، ستكون متحمسة بالفعل، فهي تحب أدريان وتحترمه، وسوف تستمتع بالتميز الاجتماعي الذي ستكون فيه عندما تصبح ابنة زوجة الناظر. كذلك كانت مادلين تعرف كم سيكون الأمر باعثاً على البهجة إذا أصبح لها وقت فراغ كبير تقرأ فيه كل الكتب التي تود قراءتها، وتستكشف كل المتاحف ومعارض الفن التي تستمتع بزيارتها. بل وقد يكون لها أسرة كبيرة أيضا.

هنا انتصبت مادلين في جلول، لايمكن أن تقنع نفسها أبدا مرة أخرى بحياة مثل هذه. لم تكن في قرارتها شخصاً مرتزقاً، وكانت تفزعها فكرة الزواج من أحد لمجرد المنافع المادية التي يمكن الاستمتاع بها، لا تستطيع هي بالذات أن تفعل ذلك. لقد استطاعت هي و ديانا أن يدبرا أمورهما حتى الآن. وخلال عامين، تكون ديانا قد عملت واستطاعت أن تزود نفسها بالكماليات القليلة التي لم تستطع مادلين أن تتحمل نفقاتها دائما.

قالت وهي تتنهد مرة أخرى:

«أنا آسفة يا أدريان . لا أستطيع أن أفعل ذلك ، وعلى قدر إعجابي بك واحترامي لك، أستطيع أن أرى كيف يكون في وسعنا أن نمضي حياتنا معاً. أنت مصبوب في قوالبك على نحو يتعذر معه التغيير بأية حال. وسوف تكره أن تكون في البيت فتاة دون العشرين ، تفسد مجموعتك الثمينة وتوقظك في كل الأوقات على صوت أحدث مجموعة من الموسيقى الحديثة. أنت لا تتصور ماذا سيكون عليه الوضع.

«هراء!»

قال أدريان ذلك مرة أخرى ، ثم تنهد وهو يرى علامات الممانعة في وجهها، وأضاف :

«حسناً، فلتنسي ذلك، أين ديانا الليلة في أية حال؟»

«ذهبت إلى نادي السبعينات مع جيفري إيمرسون...هل تعرفه؟»

قال أدريان في تأمل.

«أعرفه، أخوه في السنة الأولى في مدرستي، ولكن جيفري يذهب إلى المدرسة الثانوية، أليس كذلك؟»

«نعم، إنه في السابعة عشرة فقط ، وقد أخذ دراساته العليا في شهادة التعليم العام، وينتظر الآن مكانا له في الجامعة.»

«آه....نعم، إنني أذكر أن هيذرنغتون كان يتحدث عنه في آخر مرة كنا نتناول فيها العشاء معاً ، كان السيد هيذرنغتون ناظر المدرسة الثانوية. وقال إن أمه مختلفة تماما. وهو لا يكاد يصدق أن جيفري هو ابنها فهي سيدة فظة جداً على ما أعتقد.»

عضت مادلين شفتها، وقالت :

«إن جيفري ولد وسيم. ذكي أيضا كما تقول، ولكنني أتساءل أحياناً إذا كان متهوراً قليلاً ، على الأقل بعيدا عن المدرسة.»

قطب أدريان جبينه، وقال وهو يبدو متفكراً:

«نعم، ربما كان الأمر كذلك ، هل يساورك القلق فيما يتعلق بتأثيره على ديانا ؟»

«نعم ، إنني قلقة.»

«ولكن ديانا ليست سهلة القياد.»

قالت مادلين ، وهي تتحرك في قلق:

«أوه ، إنني أعرف ذلك، ولكن المسألة أنها لا تزال صغيرة.»

هز أدريان كتفيه ، وقال:

«إنهن ينضجن مبكرا هذه الأيام. وديانا فتاة عاقلة، وهي لن تتصرف بغباء وحمق أبدا.»

نهضت مادلين وتساءلت :

«ألن تفعل ذلك حقاً ؟ ألن تفعل ذلك؟»

ثم ابتسمت ، وأضافت :

«لا ... لا أظن»

ابتسم أدريان ، وقال:

«إنني أدرك شعورك، أنت وصية عليها، ولذلك تشعرين بمسؤولية مزدوجة لأنها بلا أب.»

«ماذا .... ماذا يعمل والد جيفري ؟»

رد أدريان :

«إنه يعمل لحساب شركة من مقاولي سيارات النقل ، وكما قلت من قبل، فمن الواضح أن جيفري هو الذي خرج على خط العائلة.»

كان نادي السبعينات يقع فوق مقهى بالاسم نفسه في شارع هاي ستريت ، بأوتربيري . وكان كل أعضائه شباباً دون العشرين من المدارس المحلية أو الكليات الفنية. وكانت الموسيقى تأتي من صندوق للموسيقى قدمه صاحب المقهى مجاناً.

وفي مساء الجمعة ذاك كان المقهى غاصا بصغار الشباب ، كلهم يلفون ويدورون بجنون على ألحان الموسيقى الصاخبة والمثيرة التي تصدر عن الصندوق . وكان هناك بار منخفض في أحد الأركان يقدم القهوة والكوكاكولا وكانت الأضواء خافتة رقيقة.

وكانت ديانا سكوت وجيفري إيمرسون يرقصان معاً. وعندما انتهت الموسيقى سقطت ديانا على صدر صديقها ضاحكة، وصاحت:

«يا إلهي ، إنني منهكة القوى، لنجلس قليلاً!»

أوسع لها جيفري في الابتسام ، وأطبقت يداه حولها، كأنما هي أسيرته، وغمغم في رفق:

«أفضل أن أبقى هكذا.»

أحمرّ وجه ديانا ، كانت تعجب كثيراً بجيف ، وكانت مسرورة لأن علاقتهما بدأت تدخل اخيراً فيا يبدو مرحلة أكثر جدية. ولم يكن لها صديق منتظم من قبل، وأرادت أن تكون مثل سائر الفتيات اللواتي ينفقن أوقاتهن في مناقشة محاسن شتى الفتيان.

إلا أنها خلّصت نفسها وقادته وهي تمسك بيده إلى البار، حيث اتخذا جلستهما على مقعدين عاليين، وطلب جيفري قدحين من القهوة، وأخرج من جيبه علبة سكائر عرضها على ديانا فهزت رأسها وأشعل جيفري سيكارته ووضع العلبة في جيبه.

قال بفتور:

«كنت أظن أنك تنوين تجربة التدخين في وقت ما.»

قالت ديانا ، وهي تعض شفتها:

«كنت أنوي ذلك...أنا أنوي ذلك.»

قال ساخراً:

«إنك خائفة...»

فتصلبت كتفاها وقالت :

«لا، لست خائفة ، أعطني واحدة.»

هز جيفري كتفيه وناولها سيكارة وأشعلها. وجذبت ديانا أنفاسها كما كانت ترى سائر الناس يفعلون ، ثم بدأت تسعل مختنقة.

ابتسم جيف ابتسامة عريضة وربت على ظهرها، فارتعدت ديانا وصاحت :

«أوه...إنها فظيعة...لا أدري كيف يمكنك...»

قال جيف :

«يجب أن تثابري ، استمري ، اسحبي نفساً آخر.»

قالت ديانا بحسم:

«كلا ... أشكرك...»

ثم ألقت السيكارة ارضاً وسحقتها بقدمها.

قال جيف باستياء:

«ماذا فعلت ؟ إن هذه السكائر لاتنمو على الأشجار كما تعلمين.»

قالت ديانا ساخرة:

«لا، إنها تنمو على النباتات »

بدا جيف غاضبا ، وقال:

«شيء لطيف !»

ثم مضى متشامخاً ببطء عبر ساحة الرقص .

ذهلت ديانا ، لم تكن تحلم أبدا بأن ينصرف عنها ويتركها، وكان قلبها يدق بسرعة ، وشعرت بأعماقها تبرد داخلها.

كانت تعلم أن سائر الفتيات في النادي يحسدنها على ارتباطها بجيفري إيمرسون . كان فتى شديد الجاذبية وكان في وسعه أن ينتقي من يشاء من الفتيات . أما اختياره لها فكان يثيرها إلى حد كبير لأنه قبل شهرين فقط كان يعاملها كطفلة . ومنذ التحقت بالكلية التجارية ، كانت قد نمت كثيراً ، ولم تكن تدري كم هي جذابة بشعرها الحريري وعينيها الواسعتين . وعندما بدأ يواعدها ، ارتفعت مكانتها بين رفيقاتها. وكان من بواعث جاذبيته أنه كان الفتى المفضل لدى الجميع في الوقت الحاضر.

بدأت الموسيقى تعزف من جديد ، ورأته يقترب من فتاة نحيلة جميلة ويطلبها للرقص على ماهو واضح. وشعرت ديانا بالاهانة والغضب ، كيف يجرؤ على أن يعاملها هكذا ؟ وخطر لها أن تعود إلى البيت ، ولكنها كانت تعلم أنها لن تفعل ذلك، بل ستنتظر لترى إن كان سيعود إليها. كان هذا أمراً مغيظاً، ولكنها لم تستطع أن تتصرف عنه ، وإذا كانت ستفعل فليس الآن.

طلبت قدحاً آخر من القهوة ، وجلست ترشفه وهي مستغرقة في التفكير. إذا لم يأت إليها بين الرقصات فستضطر للذهاب إلى المنزل ، وكم سيكون هذا فظيعاً!

بعد رقصتين أخريين بلغت أعماق اليأس. وعندئذ شعرت بأن أحداً ينضم إليها، ولم تجرؤ على الالتفات فألقت إليه نظرة جانبية. وارتاحت لأنه كان جيف.

كان وجه جيف يبدو نائيا عنها، ولكنه قال:

«أتريدين الرقص ؟»

شعرت ديانا بيديها تتنديان:

«أنا...حسناً ...هل تريد أنت ؟»

هز كتفيه ورد ببرود :

«نعم ، إنني سأرقص.»

«حسناً...»

قالت ذلك وهي تنزلق من فوق كرسيها العالي.

وكانت الموسيقى عندئذ بطيئة متلكئة ، وكان هناك مطرب من معبودي الاسطوانات المعاصرة يتغنى بإحدى أغاني الحب . وجذبها جيف بين ذراعيه ووضع خده على خدها . وكانا يتحركان ببطء وذراعا كل منهما حول الآخر . وشعرت ديانا بنفسها ترتجف ، فهمهم إليها.

«استرخي...»

فهمست إليه قائلة:

«إنني آسفة...»

وأدركت أنها تعتذر عن لاشيء ولكن كان هذا أفضل من عدم مبالاته.

تطلع جيف إليها وتساءل :

«هل أنت آسفة حقاً؟»

تمتمت ، وهي تبدو قلقة:

«لماذا انصرفت عني؟»

«لا أحب أن يعاملني أحد وكأنني أحمق.»

«لكنني لم أكن... أوه ياجيف ... أظن أنني أتصرف بحماقة في بعض الأحيان. ألا تستطيع أن تنسى ماحدث؟»

لانت عينا جيف :

«حسناً ياديانا، أظن أنني ملوم بالقدر نفسه لأنني تصرفت بسخط وعاملتك بازدراء. هل جعلتك تشعرين بالغيرة ؟»

احمرّ وجه ديانا ، وقالت برقة، وهي تميل على عنقه وتشعر بيديه تمتلكانها إذ

تلتفان حولها:

«نعم ، لقد نجحت في هذا الاتجاه.»

وعندما انتهت الموسيقى تطلع إلى ساعته، وقال بهدوء :

«إنها التاسعة والنصف ... فلنذهب ...إذاً؟»

أومأت برأسها وذهبت لتأتي بمعطفها ، وفي الخارج كان الهواء نقياً ولكنه شديد البرودة ، فانطلقا مسرعين إلى محطة الأوتوبيس . كان جيف يسكن في الطرف الآخر من أوتربيري ، قرب المدرسة الثانوية في الواقع ، ولكنه كان دائماً يوصل ديانا إلى منزلها.

ونزلا من الأوتوبيس وسارا في الطريق المظلم صوب البناية الثانية حيث كان يسكن آل سكوت. وقبل أن يصلا إلى البناية الثانية ، وبين البنايتين العاليتين ، كانت هناك حديقة صغيرة للزينة بها أحواض زهور ومقعد طويل قائم بين أشجار الورد والشجيرات الخلنجية. وكانت مواعيد اللقاء القليلة الأخيرة بينهما تنتهي إلى هذا المقعد ، حيث كان يودع أحدهما الآخر وداعاً طويلاً . ورغم أن الجو كان باردا سارا عبر الحديقة إلى المقعد ، ولكنهما لم يجلسا في تلك الليلة . اذ كان الجو قد أمطر خلال النهار ، وكان كل ماحولها مندى ، ولكن الشجيرات كانت تكفل لها بعض العزلة والانفراد.

قالت ديانا وهي تتطلع إلى جيف :

«أشكرك على توصيلي إلى المنزل.»

«كان ذلك من بواعث سروري.»

ثم جذبها إليه وعانقها... ورغم أنها بادلته ذلك شعرت بنوع من الخطر يدنو منها. كان في مسكته القوية لها وتصاعد أنفاسه وتبادل التجاذب بينهما نتيجة المبارزة المثيرة التي حدثت... كل هذه حفزتها للتقارب أكثر على نحو لم تعهده من قبل فإذا بها تسحب نفسها إلى الوراء فجأة ، يساورها الحذر والشعور بالصد والنفور ، فتبلع ريقها بصعوبة.

عقد جيف أزرار معطفه بأصابع غير ثابتة، وقال بصوت محكم منطو:

«ألا تدركين ماذا يمكن أن يفعل عناق مثل هذا لرجل ؟»

عضت ديانا شفتها وأطبقت قبضتيها ، وتساءلت بعصبية:

٢ ـ دعـوة

اعتادت مادلين و ديانا التسوق معاً صباح السبت، حيث تشتريان معظم الطعام المطلوب للأسبوع التالي، وتضعان السلع القابلة للفساد في الثلاجة الصغيرة في المطبخ. وبينما كانتا تتناولان الغداء قالت ديانا :

«سأذهب بعد الظهر مع جيف إلى مباراة الركبي التي ستقام في المدرسة الثانوية، ثم نتناول الشاي في منزله ونذهب بعد ذلك إلى السينما.»

وتساءلت مادلين وهي ترفع حاجبيها السوداوين:

«حقاً؟ وهي ستسرّ والدته بذلك؟»

ابتسمت ديانا وقالت:

«هل قابلت أسرته من قبل؟»

«كلا، ولكن هذا لا يهم»

هزت مادلين كتفيها، وقالت:

«حسناً. أتمنى أن ينتهي كل شيء على ما يرام. هل هذا ينذر بعلاقة أكثر جدية في المستقبل؟أمل ألا يكون الأمر كذلك. فأنتما صغيران جداً كلاكما.»

هتفت ديانا :

«أوه يا أمي... »

ثم حملت طبق حلواها إلى المطبخ.

وبينما كانت تعد القهوة، انضمت إليها والدتها وعلى وجهها علامات التفكير. قالت بهدوء:

«أريد منك فقط أن تتذكري أنك مجرد طفلة. وجيف لا يزال بالمدرسة، وهو ينوي كما قلت لي أن يلتحق بالجامعة في الخريف. فليس من فائدة ترجى أن ترتكبا شيئاً ينم عن حماقة.»

احتجت ديانا في غضب، وكانت تمقت أن يحدثها أحد بتعالٍ، وقالت:

«لست أرى سبباً لديك يدعوك إلى أن تحدثيني بهذه اللهجة. وفي اي حال أنا لم أتحدث بشيء، أليس كذلك؟»

«بلى، إنك لم تتحدثي بشيء، ولكنك كنت تبدين غريبة ليلة أمس عندما عدت إلى المنزل.»

شعرت ديانا بوجنتيها تلتهبان من جديد. كان مما يبعث على الضيق أن تبدو شفافة على هذا النحو:

«ليس ثمة سبب...»

ردت بذلك باقتضاب، وقلبت إناء القهوة. وتساءلت مادلين اذا كانت قد أفرطت في قلقها بشأن ديانا . فكما قال أدريان إن الفتيات ينضجن مبكراً هذه الأيام. مقتت ذلك. لكم مقتت ذلك!

وبعد الفراغ من تناول الطعام تولت مادلين غسل الأطباق بينما ذهبت ديانا لتغيرّ ملابسها. ثم أخرجت مادلين المكنسة الكهربائية، إذ كانت تتولى تنظيف الشقة بعد ظهر كل سبت.

برزت ديانا وهي تبدو شابة نقية في تنورة من التويد وكنزة قصيرة مكتنزة. وكانت ترتدي سترة من الفراء ذات كسرات لها قلنسوة من الفراء نفسه. وكانت هذه السترة أصلاً لمادلين ، وكانت في لون العسل مع بطانة بنية غامقة. وهي مناسبة لبشرة ديانا الزيتونية مثلما كانت مناسبة لبشرة مادلين.تطلعت ديانا إلى أمها في حزن واكتئاب وتساءلت وهي تشير إلى السترة:

«هل تمانعين؟»

لوت مادلين قسمات وجهها، ولكن كانت هناك نظرة سرور في عينيها، وتساءلت مبتسمة:

«وهل يهم إذا كنت أمانع ؟ كلا، استمري وشأنك. إنها على الأقل ستدفئك... وأرى أنك ترتدين حذاءك الطويل الجديد، إنني مسرورة لأنك اشتريت هذا

الحذاء، رغم أنه غالي الثمن.»

«حسناً، أود أن أبدو جميلة عندما أقابل والديه.»

قالت مادلين في شك:

«ن... نعم... »

ثم أردفت وهي تهز كتفيها:

«تمتعي بوقتك!»

«سأفعل... وداعاً...»

وبعد أن ذهبت ديانا ، انكبت مادلين على العمل في شبه انتقام. لم تكن مولعة بعمل المنزل بوجه خاص، ولكن كان لا بد من أدائه، ولم تكن هي من النوع الذي يتجنبه.

وما كادت تفرغ حتى حل وقت تناول الشاي، فصنعت لنفسها وجبة صغيرة. كان أدريان يصطحبها دائماً إلى الخارج للعشاء في أمسيات السبت، لذلك لم تعن بتناول وجبة كبيرة. كانا عادة يذهبان إلى فندق يقع خارج أوتربيري ، ويتناولان شيئاً من الشراب قبل الوجبة. وكانت مادلين تستمتع دائماً بهذا التغيير إذ لم تكن تخرج أبداً طوال الأسبوع.

غيرت ملابسها وارتدت ثوباً من الجيرسيه بلون العنبر،ومشطت شعرها وثبتته على وضع العقدة الفرنسية. وبينا كانت تضع ماكياجاً خفيفاً على وجهها خطر لها أن بشرتها على الأقل جيدة. كانت ناعمة خالية من التجاعيد، وكانت تدرك أنها تبدو أصغر من أعوامها الثلاثة والثلاثين. وبينا هي مسرورة بخواطرها،أدركت أن كل هذا النقد الذاتي إنما يرجع إلى الرجل في السيارة الحمراء، وهنا تساءلت مرة أخرى إذا كانت ستراه بعد ذلك.

وصل أدريان في السابعة والنصف، وكان يرتدي حلة من جلد الغزال فبدا بذلك أصغر سناً ومميزاً، وابتسمت مادلين وهي تسمح له بالدخول، وقالت وهي تطريه:

«إنك تبدو هذا المساء أنيقاً للغاية.»

رفع أدريان حاجبيه وقال:

«أشكرك، انت تبدين أنيقة ايضاً.»

ارتدت مادلين سترة مريحة وردت قائلة في بهجة واقعية:

«أتوقع أن يكون الجو باعثاً على البهجة كالعادة.»

قاد أدريان سيارة روفر قديمة لكنها مريحة إلى حدّ ملحوظ. وكان دائماً يقول إنه سيضطر إلى شراء سيارة جديدة، ولكن مادلين كانت تعلم أن سيارته القديمة ستبقى معه سنوات عدة بعد. فقد كان يكره التغيير إذ يألف الاعتياد. وكان هذا هو السبب الذي جعلها تعلم أنه ليس في وسعها أبداً أن تفكر جدياً في الزواج منه، إذا لم يكن ذلك إلا بسبب عاداته الحازمة.

كان فندق كراون يقع على مسافة ثلاثة أميال فقط من اوتربيري، على طريق غيلفورد. وكان يقدم الطعام والخدمة المناسبة اساساً للذين يريدون الابتعاد عن صخب المدن واندفاعها. كما كانت مطاعمه ذات كفاءة طيبة. وكان الطعام الذي يتولاه طاه فرنسي لذيذاً ومنوعاً في مذاقه ولذلك اشتهر بالخدمة الحسنة، وكانت مادلين تشعر وهي تتناول الطعام فيه بأنها خبيرة ذواقة في اختيار أصنافه والحكم عليها.

وكان الطريق إلى الفندق يمر بمصنع شريدان ، فشعرت بعينيها تنجذبان إلى المكان وهي تمر عليه. وتساءلت أي مركز يحتله الرجل. لقد قال إنه يعمل بالمصنع، فربما يكون أحد المديرين. فرجل مثله يقود سيارة مثل سيارته، لا يمكن أن يكون من طبقة العاملين في الورشة. هذا إلى أن حلته كانت تنبيء بتفصيل راق، حتى حلل أدريان لم تكن تناسبه على هذا النحو الجيد أو تبدو غالية الثمن كهذه الحلة. ومع ذلك فأدريان ناظر مدرسة! ولكن أدريان كان يتوخى في شرائه الأشياء أن تدوم، وكانت غالباً ما تدوم.

كان الفندق مزدحماً. ولكن مائدتها كان يجري حجزها من أسبوع لأسبوع، وذلك يعد شيئاً مضموناً. فمنذ وصول الايطاليين والأمريكيين، بدت بلدة أوتربيري وما يكتنفها وكأنها تصغر تدريجياً، وكان سكانها يتجاوزون الحدود في كل مكان. وزمجر أدريان وقد اضطر إلى أن يشق طريقه إلى البار ليحضر شرابها. وعاد يشق طريقه إلى جانبها وهي تقف قرب المدخل.

قال وهو يتخذ بجانبها وضعاً مريحاً:

«يا له من زحام. لقد أصبح المكان أشبه بمباراة الركبي كل اسبوع. ولم يكن

ترددت مادلين ، وحثها أدريان على القبول ، وقال ملاطفاً وهو يستحثها:
«أرجوك أن تقولي إنك ستحضرين يا مادلين .»
«ولكن...ديانا... »
قال أدريان بحزم :
«قادرة تماماً على أن تعتني بنفسها في أمسية واحدة، نعم يا هيذرينغتون، ستحضر، هل أتي بسيارتي لاصطحابك؟»
قال وهو ينهض :
«نعم، سيكون هذا أفضل، ثم في وسعك بعد ذلك أن تذهب لاصطحاب السيدة سكوت، والآن، يجب أن أذهب وأدعكما تواصلان أمسيتكما بدون إزعاج.»
ثم لمعت عيناه وهو يقول :
«أحكمي ضبطه يا سيدة سكوت !»
وضحكت مادلين عندما لمحت الغضب في ملامح أدريان ، وانصرف هيذرينغتون، وهو لا يزال يضحك في خفوت. وهتف أدريان في سخط :
«حقاً، لقد ذهب هذا الرجل إلى أبعد حد، ماذا يظن نفسه؟»
قالت مادلين في رقة ولطف :
«إنه رجل مسن ساحر، إنني معجبة به، كان يمزح فقط فلا تدع السخط يتملكك يا أدريان على لا شيء.»
تنهد أدريان وابتسم في ندم، وقال :
«أظن أنك على صواب كما أنت في العادة. إنه يجعلني أشعر دائماً بأنني أشبه بتلميذ من تلاميذه.»
ضحكت مادلين في مرح، وقالت في ابتهاج :
«تلميذ مسن، ألا تظن ذلك؟»
وبعد أن غادرا الفندق توجها بالسيارة إلى شقة مادلين . كانت الساعة مجرد العاشرة مساء، فدعته لتناول مزيد من القهوة. ولم تكن ديانا في الداخل عند وصولها، ولكنها جاءت بعد ذلك مباشرة.
كانت وجنتاها محمرتين، ولم تكن مفعمة بأحلام اليقظة على نحو ما كانت في الأمسية السابقة. وشعرت مادلين بارتياح، وإن كانت قد ساورتها بعض

المخاوف إزاء قسماتها المكتئبة. لم تكن قد عرفت كيف تعاملها في الأمسية السابقة وكان من الواضح أنها لا تعرف كيف تعاملها الليلة كذلك. فقررت أن يكون فعلها عفوياً، ورفضت أن تبدأ في القلق من جديد بعد هذه الأمسية السارة التي تبعث على الاسترخاء.
وسألت ديانا وهي تتطلع إلى أدريان :
«هل قضيتما امسية لطيفة؟»
غاص أدريان في الأريكة المريحة وقال :
«لطيفة جداً، أشكرك يا ديانا ، والآن تعالي أخبريني عن فتاك... هل وفر لك وقتاً طيباً؟»
قالت ديانا في أدب، وهي تخلع السترة المصنوعة من الفراء، وتجلس بجواره:
«نعم، أشكرك. تناولنا الشاي في مسكن والدته، ثم ذهبنا إلى السينما، شاهدنا أحد أفلام الغرب في سينما أوديون .»
«هل كان فيلماً جيداً ؟»
جعدت ديانا أنفها، وقالت مسلّمة :
«كان لا بأس به... إننا لا نرى دائماً أجزاء كثيرة من الفيلم.»
قالت ذلك وهي تراقب في تراخ تعبير الصدمة على وجه أدريان .
لم يخب ظنها. اذ رفع أدريان حاجبيه استنكاراً. كانت كلماتها الصريحة قد صدمته. وكان من المحقق أن هذه الشيطانة الصغيرة، ابنة مادلين ، تتغير. كانت مادلين على صواب.
وتساءلت مادلين ، وهي قادمة من المطبخ تحمل صينية من القهوة :
«كيف كان الشاي؟ هل سارت الأمور سيراً حسناً بينك وبين والديه؟»
هزت ديانا كتفيها النحيلتين :
«أظن ذلك. أبدت والدته بعض الملاحظات الشائكة عن إهماله الدراسة أخيراً، وكأنني أنا السبب كله، وأنه لا بد له أن ينقذ نفسه إذا كان يتوقع أن يبعثوا به إلى الجامعة في الخريف...»
وتنهدت ديانا وهي تتذكر ما حدث، وأردفت قائلة :
«مسكين جيف . بدا عليه الغضب فعلاً وقال لأمه بوقاحة إن الأمر يخصه هو،

سواء ذهب إلى الجامعة أو لم يذهب، وأعتقد أنه سيغير رأيه.»

بللت مادلين شفتيها بلسانها، وقالت :

هكذا إذاً ولكنك قلت له بالطبع إنه يجب عليه دخول الجامعة... أليس كذلك يا ديانا ؟ إنه ولد ذكي، هكذا يقول ناظره، ويجب ألا تقفي حائلاً بينه وبين دراسته.»

بدا على ديانا التمرد، ولكنها ظلت صامتة، وتبادل أدريان و مادلين النظرات. وتساءلت ديانا فجأة وهي تغيّر الموضوع وتسأل عما تناولاه في عشائهما. فروت لها مادلين أحداث الأمسية، ووصفت لها لقاءهما مع هيذربنغتون ودعوته لهما لزيارة آل ماسترسون . فصاحت ديانا بشيء من الغيرة:

«هل تعتقدان أن في وسعي الحضور؟»

قطب أدريان جبينه، وقال:

«أخشى ألا يكون هذا ممكناً يا ديانا ، فهذه مناسبة للكبار، وقد تثير ملل الشباب مثلك!»

ضغطت ديانا على شفتيها، وغمغمت:

«للكبار.. هه؟ فماذا أنا إذاً.»

مد أدريان يده الى علبة سكائره، ورد في نعومة:

«لست أكثر من تلميذة! أمامك يا ديانا سنوات وسنوات، فتمتعي بما يخصك اليوم، ولا تتوقي إلى المستقبل قبل أن يأتي.»

تنهدت ديانا وقالت:

«لا أريد محاضرة يا عم أدريان ، وفي أي حال أعتقد أنها ستكون مناسبة مثيرة جداً. من سيكون هناك؟»

رد أدريان قائلاً:

«أوه... أتوقع أن يكون هناك مديرو المصنع، ومعظمهم رجال متزوجون ومعهم عائلاتهم هناك. وكما قلت لك ستكون مناسبة خالية من الاثارة.»

هتفت مادلين فجأة:

«ماذا سأرتدي حقاً؟»

رد أدريان مبتسماً :

«ستفكرين في شيء ما، ولعل من الأفضل أن أخاطب هيذربنغتون المسن تليفونياً غداً وأعرف الوقت الذي يجب أن نكون فيه هناك. فإنني أكره أن نصل وهم يتناولون العشاء.»

أومأت مادلين برأسها موافقة، وقالت وهي تتمطى في كسل:

«أوه، نعم. في وسعك أن تخبرني يوم الاثنين، إنني متعبة، لقد كان يوماً طويلاً.»

غمغم أدريان في جفاف، وهو ينهض :

«أنا المقصود بهذه التلميحة، سأنصرف الآن. هل أراك غداً؟»

قالت مادلين في يسر :

«تستطيع أن تأتي إذا شئت. كن على راحتك. فإذا لم تستطع فسأراك صباح الاثنين.»

«حسناً، مساء الخير..»

قالت ديانا وهي تقبل خده:

«تصبح على خير يا عم أدريان ، انتبه للطريق.»

وبعد أن انصرف أدريان حملت مادلين الأطباق إلى المطبخ، وتبعتها ديانا . والتقطت منشفة الشاي لتجففها. وتساءلت مادلين وهي تفتح الماء الساخن:

«هل ستقابلين جيف غداً؟»

ردت دايانا وهي تقطب جبينها :

«نعم ــ لماذا؟ هل تريدينني لشيء؟»

ابتسمت مادلين في شك وهي تنظر إلى ابنتها :

«أوه... كلا... أين ستذهبان؟»

ردت ديانا بهدوء :

«حسناً، لمجرد نزهة بعد الظهر في الواقع.»

«هل تودين أن تصحبيه إلى هنا لتناول الشاي؟»

لمعت عينا ديانا وهتفت :

«هل أستطيع ذلك؟»

لم يكن جيف قد حضر إلى الشقة إلا مرّة واحدة من قبل لتناول الشاي، وفي ذلك الحين أصيبت مادلين بصداع واضطرت إلى أن تتركهما يتدبران أمرهما. ابتسمت مادلين الآن وقالت:

«بالطبع. وإذا حضر العم أدريان ، فقد نلعب بعد الشاي لعبة المونوبولي أو شيئاً مثل ذلك.»

بدا على ديانا النفور:

«أوه يا أمي، لا نريد أنا وجيف أن نلعب ألعاباً»

هزت مادلين كتفيها:

«ماذا ستفعلان إذاً؟»

«ربما نذهب إلى نادي السبعينات.»

قطبت مادلين جبينها. لم تكن تحب فكرة ذهاب ديانا إلى مكان كهذا مساء السبت، لكن كان من الأفضل من ناحية أخرى أن تعرف أنها هناك، بدلاً من السير في الشوارع على غير هدى. قالت:

«لا بأس افعلي ما تشائين.»

٣ ـ لقاء بلا موعد

خلال يوم الاثنين، وجدت مادلين أفكارها في كثير من الأحيان تسبقها إلى الأمسية. كانت مناسبة هامة لها أن تخرج خلال الأسبوع. كانت هي وأدريان يستقلان القطار بين حين وآخر إلى لندن ويذهبان لمشاهدة أحد العروض أو إحدى الحفلات الموسيقية في قاعة المهرجانات الملكية، ولكن هذه المناسبات كانت قليلة ومتباعدة، إذ كان أدريان مشغولاً عادة طوال الأسبوع، كما أن ديانا كان يتعين أخذها في الاعتبار. فقد كانت لا تزال أصغر من أن تترك وحدها لوقت طويل، وكانت مادلين تقدمها على كل شيء.

وجاء أدريان يوم الأحد لتناول الشاي في الشقة، وقابل جيف هناك. وقضيا معاً وقتاً طيباً. اذ كان جيف ذكياً، وفي وسعه أن يناقش أدريان في موضوعات لا تقدر عليها المرأتان. ووجدته مادلين فتى جذاباً وتساءلت إذا كان قلقها بشأن ديانا بغير موجب. فمن المؤكد أن في وسع الشباب على أن يتصادقوا بدون أن يقعوا في ضيق ما. كان فتى حسن المظهر، ومهما كانت خلفيته كان قادراً على أن يعنى بنفسه وأن يتصرف في أدب كأي فتى مهذب.

ذهبت مادلين إلى وسط المدينة وقت الغداء يوم الاثنين، وقررت أن تكرّم نفسها بشراء ثوب جديد للأمسية. وكانت قليلاً ما تطلق لنفسها العنان إلا في الضرورات... وحتى ديانا نفسها ذهبت إلى حد القول بأن هذا النوع من المناسبات لا يحدث كل يوم.

وجدت ما تريد في متجر صغير للملابس وكان ثمنه أكثر مما توقعت لكنها لم تستطع أن تقاوم إغراءه وهي تجربه. كان من الشيفون الأخضر في خضرة ورق الشجر، طويلاً إلى عقبيها، مرصّع الصدار بالترتر. وكانت فتحة العنق منخفضة ومستديرة ومطرزة بخرزات دقيقة، وكان للثوب أكمام تنتهي بأساور مطرزة أيضاً بالخرزات. كان ثوباً نموذجياً للمناسبة، وعادت به مادلين إلى العمل وهي تشعر بسرور بالغ. وعندما طلب منها أدريان بعد الظهر أن يراه رفضت، وقالت مداعبة :

«انتظر حتى الليلة... أريد أن أفاجئك.»

ضحك أدريان بصوت خافت، وقال :

«حسناً، يا عزيزتي، كما تريدين. لكنني أتوقع منك أن تعرضيه لي قبل الذهاب إلى الحفل.»

ابتسمت مادلين وهزت رأسها، وفكرت وهي تتنهد... حقاً، إن أدريان شخص عزيز، فلماذا لا تستطيع أن تقرر الزواج منه، وينتهي الأمر.

كان من المقرر أن يصلا إلى بيت آل ماسترسون في التاسعة. وحضر أدريان في التاسعة إلا عشر دقائق، ليصطحب السيد هيذرينغتون الذي كان ينتظر في السيارة عندما نزلا. أما ديانا فلم تكن ستخرج هذا المساء، إذ كان جيف يدرس فقررت أن تغسل شعرها وتستمع إلى أسطواناتها.

كانت مادلين ترتدي معطفاً من الصوف الكثيف بلون الكريمة، وتركت شعرها ينسدل على كتفيها، فظهرت كأنها في الخامسة والعشرين، حتى قالت ديانا في شبه مرارة :

«يا للسماء يا أماه، لن يصدق أحد أن لك ابنة تجاوزت السادسة عشرة!»

فردت قائلة :

«هذا كله مفيد، أليس كذلك؟»

ولكن لهجة ديانا بدت غير قاطعة.

بالغ هيذرينغتون في إطراء مظهرها. وكان أدريان قد أبدى إعجابه بها في ثوبها الجديد، فأيقنت مادلين أنها ستمتع نفسها، واسترخت تماماً.

ولم يكن بيت آل ماسترسون بعيداً، بل يقوم على أراضيه الخاصة، ويضاء

بالكشافات ليلاً، منظره مثير. وهناك عدة سيارات واقفة أمام المنزل في الفناء المليء بالحصى. وأدركت مادلين أن معظمها من النوع الرحب الفاخر الذي ينتجه مصنع شريدان ونظرائه. وكانت تبدو مريحة راحة فائقة، فلم تملك مادلين أن حسدت شاغليها على هذا التفوق في وسيلة النقل. وكانت هناك سيارات من طراز شريدان تلك التي اصطدمت بها الأسبوع الفائت وهي على دراجتها البخارية، ولكن لم تكن من بينها سيارة حمراء.

وكان البيت الذي بني خلال القرن السادس عشر تجدد واتسع وبالرغم من مظهره الخارجي كان ينمّ عن انتمائه الى العصر الاليزابيثي. إلا أن التدفئة المركزية والأضواء الكهربائية والسجاجيد الملائمة انقذته في الداخل من معظم أجوائه الغابرة.

وكانت القاعة واسعة مرتفعة بسقف منحوت، ومضاءة بشمعدانات كهربائية متشعبة نصبت في الجدران على مسافات، وأعطت سمات ضوئية مريحة للبطانة الخشبية اللامعة وللأثاث المصنوع من البلوط. وكانت الأرض مصقولة كذلك، وتبدو مثالية للرقص. إلا أن معظم الضيوف تجمعوا فيما يبدو في غرفة جلوس كبيرة إلى يمين القاعة. وذهب الخادم الذي أدخلهم وأخذ معاطفهم إلى الغرفة لينبيء مرؤوسيه بوصولهم.

خلب المكان لب مادلين ، وبينما هي تدرس بإعجاب شرفة المغنين خرجت إليهم لتحييهم من غرفة الجلوس سيدة وسيمة صغيرة الجسم، ترتدي سروالاً وبلوزة من اللون الأرجواني الكثيف، وقدمت نفسها على أنها لوسي ماسترسون، وقالت إن زوجها سيلحق بهم فيما بعد. قالت بعد أن تعرفت على شخصياتهم :

«إنه يجتمع الآن على انفراد بنيكولاس... نيكولاس فيتال . إنهما دائماً يتحدثان في شؤون العمل هذه الأيام، وآمل ألا تظنوه خشناً. ولكن نيكولاس هو الرئيس، ولديهما الكثير لمناقشته أثناء وجوده هنا.»

قال هيذرينغتون، وهو يبتسم :

«لا بأس بهذا يا سيدة ماسترسون نحن ندرك الموقف.»

وتصوّرت مادلين أن يكون عمر لوسي بين الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين، وظنت في تقديرها لأول وهلة أنها امرأة سطحية.

قادتهم لوسي إلى الجمع في غرفة الجلوس. كان هناك نحو ثلاثين ضيفاً، كلهم يقفون ويحتسون الشراب ويتبادلون الأحاديث القصيرة. وكان هناك جهاز في ركن تنبعث منه نغمات الموسيقى الهادئة. وقد عبق المكان بعطر فرنسي وتبغ هافانا . وكانت الأرض مغطاة بسجادة ذات لون أحمر كثيف، يتلاءم مع الستائر ذات القطيفة الكثيفة. وهنا وهناك أرائك ومقاعد ذات مساند، منجدة بجلد ناعم، بينما كانت هناك رسومات حية خففت من حدة بياض الجدران الناصع.

واكتشفت مادلين أن الكثير من الضيوف أزواج فيما يبدو وهناك عدد متساو تقريباً من الايطاليين والأمريكيين، وعللت لوسي ذلك بأن شركة شريدان لديها مصانع في إيطاليا وأمريكا كما لديها هنا. وعندما اشتبك أدريان والسيد هيتربنغتون في مناقشة فنية مع بعض كبار السن من الضيوف الحاضرين وجدت مدلين نفسها بجانب زوجين أمريكيين هما فران وديف ماديسون .

سألت فران باهتمام، ومادلين تقبل سيكارة عرضها عليها ديف :

«هل تقيمين في أوتربيري ؟»

ردت مادلين :

«نعم، لي شقة لا تبعد عن هنا كثيراً في الواقع. أتقيمان أنتما هنا؟»

قال ديف مؤكداً:

«نعم، لدينا شقة أيضاً. ولكننا نتوقع أن يكون لنا بيت قريباً في المشروع الجديد قرب المصنع، في أواخر العام.»

«هل انتما من أمريكا ؟»

ابتسم ديف ابتسامة ساخرة وقال :

«أصبت، وأظن أن اللكنة واضحة.»

ضحكت مادلين بصوت خافت، وقالت:

«خطر لي أنكما ربما تكونان هنا في زيارة لآل ماسترسون... »

ثم تطلعت إلى فران قائلة :

«هل تحبين انكلترا؟»

قالت فران بدون حماسة:

«أعتقد لا بأس بها، ولكن لا يوجد هنا الكثير لنفعله. أليس كذلك ؟ ونحن نأمل أن نذهب إلى إيطاليا فيما بعد. هل سبق لك السفر إلى الخارج؟»

قالت مادلين في حزن :

«إلى فرنسا فقط. فمنذ مات زوجي وأنا وابنتي لا نسافر كثيراً.»

هتف ديف في دهشة :

«ألك ابنة؟ ابنة طفلة؟»

ردّت مادلين باسمة:

«كلا، إنها في السادسة عشرة من عمرها في الواقع. ولكنني أشكرك على كلماتك الرقيقة.»

هتف ديف ، وهو يبتسم ابتسامة لاهية عريضة :

«هذا ليس عدلاً... وما كنت لأقول إنك تبدين أكثر من الخامسة أو السادسة والعشرين.»

بدت فران وكأنما انطفأت حماستها الآن وظهر عليها شيء من الضيق، وسرت مادلين عندما جاء رجل آخر للانضمام إليهم. وكان مثل ديف طويلاً أشقر، ملامحه مقبولة وقد انتشر النمش في وجهه، وكان من الواضح أنه يعرف آل ماديسون جيداً وقال :

«تحية لكما... هل لدينا عضو جديد في المنظمة ؟»

رد ديف وهو يلتفت إليه :

«كلا... هذا هارفي كامنغز يا مادلين ... هو أيضاً عضو في عائلة شريدان.»

حيته مادلين بأدب، وهي تومىء له برأسها:

«كيف حالك؟»

رد هارفي مبتسماً بسخرية :

«أنا بخير، وبخاصة عندما تهتم بي امرأة جميلة. وبالمناسبة، هل لك زوج في مكان ما هنا؟»

أجابت مادلين ، ووجنتاها تتوردان :

«إنني أرملة ...»

وشعرت بأن طريقته المباشرة إزاءها تثير الارتباك قليلاً...

قال هارفي وهو يفيض مرحاً :

«عظيم، ظننت أنك تبدين وحيدة غير مرتبطة، هل لي أن أربط نفسي بك؟»

طلعت مادلين مستنجدة بآل ماديسون ، وتساءلت بحذر :

«أليست زوجتك هنا ؟»

فانفجر ديف ضاحكاً :

« هارفي متزوج؟ أتمزحين؟ من يمكن أن يأخذ على عاتقه عبئاً مثله؟»

قال هارفي في إباء كاذب :

«لا تعبأي به، الأمر ببساطة هو أنه لا يوجد من يفهمني.»

ضحكت مادلين ، كانت تستمتع بهذا المزاح الطيب، فقد انقضى عليها وقت طويل منذ كانت بصحبة الشباب، كشابة يمكنها الانغماس في هذا المرح، أما أدريان - رغم أخذه الأمور بسهولة - فلم يكن من هذا الطراز المرح الذي يمكن أن يسخر من نفسه. وحتى جو لم يكن لديه وقت للفكاهة، وبسبب زواجها المبكر افتقدت مادلين هذا النوع من المبادلات الخفيفة.

قال ديف فجأة :

«أوه، هذا رئيسنا اللامع، لا بد أنهما أنهيا عملهما.»

التفتت مادلين والآخرون، كان هناك رجلان يدخلان الغرفة، كلاهما طويلان، ولكن أحدهما كان أعرض منكباً، له ملامح نحيلة حسنة المظهر وكان كلاهما يرتديان بذلة غامقة، ولكن الرجل العريض المنكبين كان أكثر سمرة، وعرفت فيه مادلين على الفور الرجل الذي كان يقود السيارة الحمراء. من يكون؟ كونراد ماسترسوم أو نيكولاس فيتال ؟ من المؤكد أنه لا يمكن أن يكون الأخير!

سألت مادلين فران في رقة :

«أيها السيد ماسترسون»

ردت فران :

«إنه القادم إلى اليسار يا حبيبتي...ألا تعرفينه؟»

«كلا، أخشى ألا أكون أعرفه.. الرجل الأسمر إذاً هو نيكولاس فيتال؟»

«نعم، وسيم أليس كذلك؟ إنه إيطالي بالطبع، وهذا يفسر سمرته البالغة، وقد قضى وقتاً طويلاً في الولايات المتحدة، ومن الطبيعي أن نحبه جميعاً، لكنني كما ترين، اكتفيت بديف!»

وضحكت عندما ظهر الاستياء على وجه ديف ، وأردفت :

«إن نيكولاس يا حبيبتي، هو أكثر الذكور مراوغة منذ آدم!»

شعرت مادلين بمعدتها تنقلب. لقد اصطدمت بالسيارة التي يملكها صاحب مصانع شريدان ، فلا عجب أن يكون أصابه الضيق!

تطلع نيكولاس فيتال بسأم ساخر إلى الحشد القائم في غرفة الجلوس. كان هذا الطراز من الاجتماعات يسئمه. إفراط في الشراب وكثرة فائقة في عدد الاناث المفترسات، الملتفات حوله. ولو لم يكن لديه عمل مع كونراد ماسترسون لما جاء الليلة، فقد عثر على ناد صغير في لندن أقرب إلى ذوقه، ولكنه الآن هنا في أي حال، ويتوقعون منه أن يبقى لفترة على الأقل.

بحثت عيناه الحادتان في أرجاء الغرفة عن هارفي كامنغز ، كان هارفي مساعده الخاص ومسؤول العلاقات العامة لديه. وكان هارفي يحب هذا الطراز من المناسبات.

رأى هارفي على الفور، كان يقف مع ديف ماديسون وزوجته، وفتاة أخرى، وافترض أن تكون الفتاة مع هارفي

اعتذر لمضيفه وشق طريقه بين الحشود الثرثرة إلى حيث كان يقف هارفي، وبادل الضيوف الآخرين تحياتهم وهو يمرّ، ولكنه لم يقف ليتحدث، مما أشعر جماعة الاناث بالأسف والأسى. كان الجميع يعرفون بالطبع من هو، وكان يعلم أنهم سيثيرون التخمينات عن نشاطه. ولم تكن لحياته الخاصة وجود تقريباً في بعض الأحيان. وكان يعلم أن له سمعة قاسية فيما يتعلق بالنساء. وإلى حد ما كان لسمعته ما يبررها، ولكن نيكولاس نفسه كان يدرك أن النساء اللواتي ورطن أنفسهن في حياته لم يتوقعن أكثر مما أعطاهن. ومن المؤكد أنهن لو أردن أن يلعبن اللعبة على طريقته لما كان هو الرجل الحقيقي وراء قناع الدبلوماسية.

وكان هارفي ورفيقته مشغولين بالحديث عندما اقترب منهما. وكان ثمة

وقت أتيح له فيه أن يتساءل عمن تكون الفتاة، وهم يتحدثان. كانت طويلة نحيلة، لشعرها لون جميل غير عادي، ينسدل بطلاقة على كتفيها ويبدو كثيفاً حريرياً. وقالت له خواطره إن هارفي يحسن اختيار رفيقاته. وما لبث أن قال وهو يضع يده على كتف هارفي :

«هل يضايقك أن أفض هذا الحديث الهامس بينكما؟»

استدار هارفي فجأة، وقال وهو يئن :

«يا إلهي! ظننتك شرطياً! ألا بد لك أن تقتحم اجواء شخص مثلي على هذا النحو؟»

ابتسم نيكولاس ابتسامة عريضة، ثم ضاقت عيناه. كانت الفتاة التي تقف مع هارفي معروفة له. انها راكبة الدراجة البخارية عندما اصطدمت بسيارته يوم الجمعة الفائت. وكان من الواضح أنها عرفته أيضاً، إذ امتلأ وجهها فجأة بالاحمرار. قال متشدقاً :

«حسناً، حسناً، العالم مكان صغير حقيقة.»

بدت الحيرة على وجه هارفي :

«ماذا؟ هل يعرف كل منكما الآخر؟»

قال نيكولاس بطريقة جافة :

«السيدة سكوت وأنا تصادمنا يوم الجمعة الفائت. كنت في سيارتي وكانت هي تركب دراجة بخارية.»

رفع هارفي حاجبيه :

«حقاً... لم تذكري يا مادلين أنك تعرفين نيكولاس عندما دخل الغرفة؟»

شعرت مادلين بالحرج كأنها تلميذة، وقالت :

«إنني لا... أعني ... إن السيد فيتال ساعدني على النهوض فقط. هذا كل ما في الأمر، ولم نجد الفرصة ليتعرف أحدنا على الآخر.»

بدا السرور على نيكولاس . لقد ظن في الاسبوع الفائت أن لها وجهاً يثير الاهتمام، ولكنها الليلة تبدو جميلة حقاً. وأراد أن يعرف عنها المزيد، فدوّن رقم دراجتها البخارية وهي تتصرف بها، وكان ينوي أن يعرف المزيد عنها. ماذا تفعل مع هارفي ؟ خاصة وأنها كانت متزوجة؟ لم يكن لديه شك في طراز النساء

المتزوجات اللواتي يعرفهن، وهن ضالعات مع رجل أو آخر، ولكن هذه المخلوقة كانت تبدو مختلفة. لم تكن على شاكلة ما ألف من معارف من النساء، كانت لها قسمات واضحة سافرة، يمكنك أن تقول إنها نزيهة، وكانت لها عينان واسعتان جميلتان... قال بلطف، وهو يتجاهل التعبير الذي بدا على وجه هارفي :

«كن صديقاً، وأحضر لي شراباً يا هارفي .»

لوى هارفي قسمات وجهه، وتساءل في لهجة عدوانية تمثيلية :

«الآن لماذا جئت هنا أيها الرفيق القديم؟»

فقال نيكولاس بلهجة لطيفة مرضية:

«حتى تستطيع أن تشتري لي شراباً.. انطلق الآن أيها الرفيق القديم.»

تنهد هارفي وتطلع بأسف إلى مادلين ، وقال بصوت مفعم بالعاطفة :

«فليكن... إن لكل منا مصيبته.»

ضحكت مادلين وهو ينصرف متظاهراً بجرح شعوره، وأخذت تدير كأسها بعصبية بين أصابعها، وهي تشعر بلسانها معقوداً. وكانت تدرك أنه يدرسها بإمعان. وما لبث أن قال :

«لم تتضايقي لأنني اقتحمت حديثك مع هارفي ، أليس كذلك؟»

تطلعت مادلين إليه وهزت رأسها نفياً بقوة :

«كلا... على الاطلاق... لم أقابله إلا منذ نصف ساعة فقط.»

«كنت أظن أنك ربما تكونين آخر غزواته!»

ابتسمت مادلين :

«أوه، كلا، لا شيء من ذلك على الإطلاق.»

«حسناً.»

قال نيكولاس ذلك وهو يبدو جاداً، وأخرج علبة سكائره، وعرض عليها، فتناولت واحدة، واستطرد قائلاً :

«وزوجك، أهو هنا الليلة ؟»

«كلا، زوجي مات منذ تسعة أعوام.»

بدت عليه الدهشة البالغة وقال :

«تسعة أعوام ؟ أرجو أن تغفري لي، ولكنني ظننت أنك حديثة الزواج.»

تنهدت مادلين قائلة :
«أو، أرجوك، أنا في الثالثة والثلاثين، وأرجو ألا تقول إنني أبدو كفتاة دون العشرين.»
ابتسم، فكانت مختلفة على نحو يثير الانتعاش. فالنساء في عمرها عادة يحببن اعتبارهن صغيرات. وكانت تجاربه قد أفادته بأن النساء لا يحببن ابداً أن يعتبرهن أحد في أعمارهن الحقيقية.فالشابات منهن يحببن اعتبارهن أكبر سناً وأكثر خبرة، والمتقدمات في السن ينفقن كل وقتهن في محاولة استعادة الشباب، الأمر الذي يؤكد أعمارهن الحقيقية.
قال موافقاً في لطف :
«حسناً، ولكنك امرأة جذابة للغاية، وأعتقد من واجبي الاعتذار لك عن سلوكي الفظ الأسبوع الفائت، لم أكن مهذباً، وأنا آسف، وأؤكد لك أنني لست معدوم الشهامة هكذا عادة، ولو لم نتقابل هذا المساء بالتأكيد سأقوم بجهد لاكتشاف عنوانك والتكفير عما فعلت.»
تمتمت مادلين ، وهي تشعر بأنها غير قادرة على الفهم :
«ليس هذا ضرورياً.»
«أوافقك، فبعد ظهر ذلك اليوم تلقيت مكالمة مزعجة من ابنتي قبل أن أغادر المصنع، ولذلك فإنني كنت في حالة غضب ذهني كبير»
«لا بأس... »
قالت مادلين ذلك وهي تشعر بقلبها يغوص بلا سبب عند ذكر ابنته. كان يجب أن تعرف أنه متزوج.
«هل... هل زوجتك هنا معك ؟»
رد قائلاً وهو يهز كتفيه :
«زوجتي كذلك ماتت، توفيت عندما ولدت ماريا ... منذ خمسة عشر عاماً.»
أحنت مادلين رأسها وقالت :
«أدرك ذلك، إن لي ابنة أيضاً.. وهي أكبر سناً بعام ... في السادسة عشرة.»
بدا مدهوشاً، وقال :
«حقاً.. إن ماريا لا تزال في روما، وهي تريد أن تأتي إلى هنا وتلحق بي. إنها

بالطبع تعترض على غيابي الطويل في الخارج، وهي تعيش مع والدتي، ولذلك فهي مدللة، وعادة تحصل على ما تريد.»
تساءلت مادلين وهي تتطلع إليه مرة أخرى :
«هل تنوي البقاء هنا طويلاً ؟»
أشار إشارة من لم يقرر بعد، وقال :
«شهران، أو ربما ثلاثة. مضى عليّ هنا فقط عشرة أيام. لا أستطيع القول على وجه التحديد، لو أحببت المكان هنا فربما بقيت.»
وهنا عاد هارفي بصينية من الشراب. لم يكن في طول نيكولاس ،وإن كان كلاهما يبدوان عملاقين بالمقارنة مع الرجال الذين ألفت مادلين صحبتهم.
وقفوا يتحدثون جميعاً بعض الوقت، ثم انضم إليهم كون ماسترسون وزوجان شابان آخران تمّ تقديمهما إلى مادلين على أنهما بول وماري - لي لوكاس . وأخذت ماري - لي تثرثر بلطف مع مادلين ، تسألها إذا كان لديها أولاد، قائلة إن لديها أربعة. وكانت مادلين خلال الحديث تحسدها على افتقارها التام إلى الاحساس المخجول بالذات. وكان يساورها الشعور بالارتباك إزاء كل ما يحدث وكان كون ماسترسون يتحدث الآن إلى نيكولاس فيتال، الذي كان يصغي اليه باهتمام، وهو يجذب أنفاس سيكارته بين حين وآخر، وكان يبدو وسيماً إلى حد كبير أهداب جفونه طويلة وكثيفة وبالغة السواد. ولم تكن على يقين إذا كانت مسرورة أو آسفة على انتهاء حديثهما. كانت قد استمتعت بحديثه، ولكن كان من حظها أيضاً أن يعود هارفي . وكان واضحاً في أي حال أن نيكولاس فيتال يبدو على راحته تماماً عندما يتحدث إلى النساء، وكانت طريقته الساحرة تنبيء عن خبرة عريقة وليست متكلفة، إنه متمرس في الحديث مع النساء، بينما هي مستجدة في الحديث إلى الرجال.
جاء أدريان للحاق بهم فيما بعد. وأحست مادلين بالخجل إذ أدركت أنها نسيت كل شيء عنه وعن هيذر ينفتون لفترة. وأخذ أدريان بذراع مادلين قائلاً :
«يبدو أنك تستمتعين بوقتك.»

فقال نيكولاس وهو يرى ما يبدو من جانب الرجل الأخر من سلوك الاستحواذ إزاء مادلين:

«قل لي كون ، هل الناظر الذي حدثتني بشأنه هنا؟»

أومأ كون برأسه، وقال في ود :

«أجل... وسأقدمك إليه.»

وهكذا وجد أدريان نفسه يتحدث إلى صاحب المصنع، والمنظمة الكبيرة التي يمثلها. وكان في وسع مادلين أن تستدل من تعبيرات وجهه أنه مسرور للغاية. وتساءلت أي مبلغ كبير من مال فيتال يمكن أن يؤدي دوراً في مدرسة أدريان .

قال نيكولاس ، باهتمام :

«أخبرني، كم سن التلاميذ الذين يلتحقون بمدرستك ؟ وهل هي مدرسة كبيرة؟»

قال أدريان ، وهو على استعداد تام للحديث في موضوعه المفضل :

«يتراوح سن التلاميذ بين الحادية عشرة والثامنة عشرة. ولدينا نحو ٨٠٠ تلميذ في مجموعهم.»

«ابنتي ماريا في الخامسة عشرة... وهي لا تهتم كثيراً بالمدرسة على الاطلاق فيما يبدو ونحن نعاني المتاعب حتى بشأن إحضارها إلى هنا. وقد خطر لي أن المدرسة في انكلترا قد تكون لا بأس بها... المدرسة الداخلية بالطبع.»

غمغم أدريان ، بتعبير مثبط :

«بالطبع ...»

كان يساوره شعور بأن فيتال سيقترح عليه إرسال ماريا إلى أوتربيري . تساءل نيكولاس فيتال ، وهو يرقب أدريان بعينين حادتين :

«هل هناك مدرسة تستطيع أن توصي بها؟»

بسط أدريان يديه قائلاً:

«إنني لا أعرف سوى القليل عن المدارس الداخلية بصفة عامة. هل تود أن ترسلها إلى واحدة من مدارس البنات الأفضل ؟ أو هل تفضل المدارس المختلطة؟»

ابتسم نيكولاس قائلاً :

«أعتقد من الأفضل أن تكون لماريا الكلمة في هذا الشأن، وإذا وافقت حقاً على دخول المدرسة هنا، فأعتقد أن أقل ما أفعله هو أن أسمح لها باختيار مدرستها، ألا تعتقد ذلك ؟»

«أوه ... في هذه الحالة ... بالطبع.»

كان أدريان يضغط شفتيه، وكانت مادلين تراقبه، وثمة تخمين يخاطرها بأنه يعد هذا النوع من السلوك خطأً تماماً. فقد كان أدريان يرى دائماً أن الأطفال لا يعرفون أبداً ما هو أفضل لهم، وأن على الكبار أن يقرروا لهم.

تساءلت وهي عاجزة عن حجب السؤال :

«ألن تفتقد رؤيتك وهي في المدرسة هنا. وأنت في إيطاليا ؟

تلاقت عينا نيكولاس الزرقاوان بعينيها لحظة، ووجدت نفسها تشعر كأنها تخوض سباقاً ولا تستطيع أن تلتقط أنفاسها إلا بصعوبة. ولم تستطع أن تتصرف بعينيها عنه، ولم تستطع أن تستجمع إحساساتها المبعثرة إلا عندما واصل حديثه ونظر إلى شخص آخر. كان من السهل التأثير عليها مثل الطفل.فأرغمت نفسها على ألا تتطلع إليه من جديد. وكان هذا أمراً عسيراً للغاية، لاسيما أنها بدت مبهورة بكل ما يقول ويفعل!

قال رداً على سؤالها :

«أتصور أن في وسعي أن أوفر وقتاً بحضوري الى هنا ورؤيتها. هذا لأن والدتي تريد الذهاب إلى أمريكا لعدة أشهر هذا العام، وسيخففها من مسؤولية ماريا أن تكون هي أيضاً بعيدة عنها.»

كان أدريان يومىء برأسه موافقاً، وكانت مادلين وهي تلوي أصابعها تفكر: إذا دخلت ماريا المدرسة في انكلترا، فالأرجح أن يأتي نيكولاس فيتال إلى هذه البلاد كثيراً. وليس هناك مكان أصلح لاقامته سوى قرب المصنع، قد تراه إذاً مرة أخرى!

كانت في داخلها توبخ نفسها على افتقارها إلى الحنكة، ولكنها كانت تبدو من الخارج هادئة. ما أسخف أن تعتبر نفسها مركزاً مناسباً لاهتماماته. ولأنه كان إنساناً ثرياً وقوياً، فلم يكن في الأغلب يتوقع من أي امرأة إلا أن تتهافت عليه لتصبح

أوثق صلة به. إن أي اهتمام قد يظهره نحوها لن يكون إلا عابراً. وبرغم أن الفرصة الآن تبدو جذابة، لكنها ستكون الخاسرة عندما ينتهي الأمر.

إنها في أي حال أرملة محترمة لها ابنة يسهل التأثير عليها في سنها. وتستطيع أن تتخيل ملامح الفضيحة على وجه ديانا لو أخبرتها بأنها تبحث في إقامة علاقة مع مليونير إيطالي! إنه أمر يبعث على الضحك حقاً. وهو حتى لم يطلب منها موعداً بعد! ومع ذلك ففي نظرته إليها ما يوحي بأنه سيفعل!

جاء هيذرينغتون ليلحق بهم ويعرف جلية الأمر. كان هو الذي يستطيع أكثر من أدريان أن يشير على نيكولاس فيتال بالمدارس المتاحة لماريا. فانتهز الفرصة للاعراب عن رأيه. ومضى الحوار مملاً رتيباً، تاركاً مادلين لخواطرها. ولم تدرك أن نظرة نيكولاس فيتال كثيراً ما كانت تنحرف في اتجاهها لتحدق فيها، أو أنه كان يتمنى أن ينصرف الآخرون ويتركوهما يتحدثان. مضت سنوات منذ أن وجد امرأة تثير فيه أكثر من مجرد اهتمام عابر. كانت النساء عادة ما يؤدين أغراضهن ثم ينساهن. وكان الحديث معهن محدوداً... الموضة... الطراز... آخر تسريحة... عادات الشراب الحالية ... تلك كانت الموضوعات السطحية التي اعتادها معهن. أما مادلين تنصت بين حين وآخر إلى صوته، إذ بها تجده مزعجاً على نحو ظاهر، ويصبح أجش عميقاً، يعطي المرء الاحساس بأن ما يقول هو لأذنيه وحدهما. والواقع أن نيكولاس كان قد بدأ يزداد ضيقاً بالمسألة كلها. أراد حقاً أن يعرف مادلين بشكل أفضل، ولكن هذه الدائرة التي تحيط به من المخلصين بدأت تصرفه عن غرضه فأراد أن يتحرر منها. فما لبث عندئذ أن أنهى الحوار قائلاً، وهو يطفيء عقب سيكارته في منفضة قريبة :

«أشكركم جميعاً على نصائحكم، سأبلغ بها ماريا بالتأكيد عندما أقابلها.»

انتفضت مادلين من بلادتها لدى هذه الكلمات، وهتفت، والكلمات تتطاير من فمها بغير سيطرة:

«هل... هل ستعود إلى إيطاليا ؟»

كانت عيناه رقيقتين وهو ينظر إليها قائلاً :

«كلا... ماريا ستأتي إلى هنا. وستبقى والدتي في روما لانهاء الأمور ثم

تأتي لتلحق بنا.»

«أوه... »

قالت مادلين ذلك ثم دخلت قوقعتها من جديد. وتساءل هيذرينغتون في دهشة :

«ألك منزل إذاً؟»

رد نيكولاس بطريقة جافة وقد بدأ يضيق بهذه الأسئلة :

«كلا، لدي جناح في فندق ستاج .»

كان فندق ستاج أكبر فنادق أوتربيري، فاخراً، متسعاً، يرعى أناساً من طراز فيتال . وكانت هذه حركة بارعة من جانب أصحابه، الذين خمنوا تخميناً صحيحاً أنه سيأتي إلى أوتربيري لا يستطيعون تحمل نفقات طعامه وشرابه الباهظة، ثم لم يكن مسموحاً بدخول أبوابه لعناصر غير مرغوبة.

جاءت لوسي ماسترسون عندئذ، وفضت كل شيء على نحو بعث الارتياح في نفس نيكولاس، فقد نظرت إليه بخجل وقالت :

«يا عزيزي نيكولاس ... عليك في الحقيقة أن تختلط بجميع الحاضرين أكثر مما تفعل. إنه لمن بواعث سرورنا أن تكون بيننا. فنحن لا نراك أبداً هذه الأيام.»

قالت هذه العبارة الأخيرة في شكل لوم. وتساءلت مادلين وهي ترقب رد الفعل لدى نيكولاس عن درجة القرب التي تود لوسي أن تكون بينها وبين رئيس زوجها، أو إذا كانت هناك علاقة ما سابقة بينهما. كان هناك في سلوك لوسي ما يوحي بذلك، وشعرت مادلين بشيء من الغثيان.

هز نيكولاس منكبيه العريضين، وتطلع إلى ساعته، وقال ببرود :

«آسف يا لوسي . إنني في الحقيقة رجل كثير المشاغل.»

ردت عليه في ضيق :

«إنك ترهق نفسك بالعمل، ويجب أن تسترخي أكثر.»

تطلع نيكولاس إليها، واستطاعت مادلين أن ترى عينيه تضيقان.

«ومن أين لك أن تعرفي أنني لا أعقل ؟»

قال ذلك عن عمد، فتصلبت لوسي، ونظرت مادلين بعيداً، فقد كان ما رأته كافياً. ورأى نيكولاس مادلين تشيح عنه، وشعرها الرائع يلمع في

الأضواء الخافتة. وكان قد انتوى أن يتحدث إليها قبل أن يبرح المكان.

هتفت لوسي في صوت غاضب خفيض :

«أنت شخص مستحيل!»

قال بغير اهتمام :

«نعم، أنا هكذا. أليس كذلك ؟ عفواً. هناك من أريد أن أتحدث إليه.»

وتقدم إلى جانب مادلين . وكانت تقف بعيداً عن الآخرين، وقد استغرقتها خواطرها فيما يبدو. وسألها برفق، وعيناه مركزتان عليها وهي تستدير لتواجهه :

«هل تسمحين لي بمرافقتك إلى البيت؟»

تطلعت إليه مادلين وهي تكاد تكون مسلوبة اللب، واتسعت عيناها وشعرت بوجهها يحمّر من جديد. إنه شعور يبعث على الضيق، أن يعرف الانسان عجزه عن السيطرة على لون بشرته. وكانت عيناه ذات الأهداب الكثيفة تنومانها تنويماً مغناطيسياً فيما يبدو، كما تباعد عنها النفور الذي أحست به عن علاقته بلوسي . وكانت موقنة أنه يدرك تأثيره عليها، فارتعدت رغماً عنها. وقالت وهي تعقد ذراعيها معاً :

«جئت مع أدريان سنكلير.»

قال بصوت جاف :

«لم أسألك مع من أتيت، سألتك إن كان في وسعي أن أرافقك إلى البيت.»

قالت وهي تتلعثم، وتشعر بحمق :

«ولكن... ولكن أدريان يتوقع... أن أذهب معه.»

«وهل هذا يهمك ؟»

هل هو كذلك؟ شعرت مادلين كأنها في فخ. لم تكن لتستطيع أن تقول في نزاهة تامة أن أدريان بالغ الأهمية بالنسبة إليها، إلا على أساس صداقة محض. ولكن من ناحية أخرى، كم هي مدينة له أكثر من هذا الغريب نسبياً؟ ترددت.. وكانت تبدو عصبية أرادت أن تتفحص فيما أمامها وأن تقول إنها ستشعر بالاثارة إذا رافقها إلى طريقين في وقت واحد بالدرجة نفسها من الشدة. لكن هل هي الدرجة نفسها حقاً؟ لو صارحت نفسها لاعترفت بأن فكرة الذهاب إلى أي مكان مع نيكولاس فيتال في حد ذاته إثارة كافية أما أدريان فلم يكن في

وسعه أن يكون مثيراً أبداً!

كان نيكولاس يتفرسها على نحو رزين وهي تهتز على الحافة. ثم قال بصوت فيه نغمة السرور :

«أنا موقن أنه إذا استغرق الأمر مثل هذا التفكير، فالرد هو لا.»

حاولت مادلين أن تجد كلمات تفسر بها ترددها. ماذا يظن فيها الآن ؟ ما لبثت أن وافقته أخيراً قائلة :

«لعلك محق فيما قلت، الأمر ببساطة هو أن أدريان وأنا صديقان قديمان ويجب ألا أجرح مشاعره.»

قال نيكولاس في دهاء :

«إن ما تعنينه حقيقة هو أنه مهتم بك.»

اعترفت في هدوء :

«أظن أنني أعني ذلك. لقد عرف كل منا الآخر لخمس سنوات الآن.»

«وكنت أرملة طوال هذا الوقت، أليس كذلك؟»

«بلى...»

«إذاً، فإنني أعتقد أنه إما غبي جداً، وإما أنك عنيدة جداً.»

ابتسمت مادلين وقالت :

«الأخيرة! فلا يستطيع أحد أن يصف أدريان بالغباء.»

هز نيكولاس كتفيه وقال :

«ثم ماذا ؟ إلى أي شيء يوصلنا هذا ؟ هل تودين أن تأتي معي... اذا لم يكن هناك سنكلير ليتدخل بالطبع؟»

مرت بيدها على شعرها في اضطراب، وقالت وهي تتنهد :

«أنا... أوه... أظن ذلك.»

بدا عليه الرضى والارتياح، وقال :

«حسناً، سأتحدث إذن إلى سنكلير.»

حدقت فيه بتوسل :

«أوه، كلا، أرجوك، إنك ستعطي بذلك لأدريان انطباعاً خاطئاً.»

أخرج علبة سكائره الرقيعة من جيبه وقدمها إليها وهو يتساءل:

«وكيف ذلك؟»

قبلت مادلين واحدة من السكائر الطويلة، وانتظرته بعد أن أشعلا السيكارتين:

«أدريان لن يفهم أبداً.»

وفي هذه اللحظة لحق بهما أدريان متسائلاً:

«هل أنت مستعدة للانصراف يا مادلين ؟ إن هيذربنغتون لا يريد أن يتأخر لأن زوجته وحدها.»

تفرس فيه نيكولاس للحظة، ثم قال:

«هل أفهم من ذلك أنك ستقوم بتوصيل هيذربنغتون إلى بيته ؟»

قطب أدريان جبينه وقال:

«هذا صحيح...»

فالتفت نيكولاس إلى مادلين قائلاً:

«أقترح إذاً أنه ما دامت السيدة سكوت لا تستعجل الانصراف في هذه اللحظة، فسأعمل بنفسي على أن تصل إلى البيت سالمة، وأعفيك من هذه المسؤولية.»

ذهل أدريان وبدا عليه ذلك. لم يرد أن يسيء إلى الايطالي، كما أن فيتال لم يترك له خياراً إلا قبول عرضه. كانت مادلين وحدها هي التي تستطيع تغيير الموقف، فنظر إليها متسائلاً، وكانت مادلين نفسها تشعر بالذنب. كانت هذه مغامرة جديدة لها يساورها تخوف من عواقبها. ومع ذلك فلم تستطع أن تقول الكلمات التي أراد أدريان أن يسمعها. إنها ستذهب معه الآن، هذه اللحظة. وعندما بدا واضحاً أنها تنوي البقاء، قال أدريان في تصلب:

«حسناً جداً... هل أنت متأكدة أنك تريدين البقاء يا مادلين ؟»

رسمت مادلين على شفتيها ابتسامة، وغمغمت بهدوء:

«لا يضايقني البقاء، وإنه للطف بالغ من السيد فيتال أن يعرض مرافقتي إلى البيت.»

بدا على أدريان أنه غير مقتنع. كان قد شاهدهما يتحدثان معاً وتساءل عما يخوضان فيه، وهو الآن يعلم، لقد خدع للحظة، ودهش من أن مادلين، التي

كان يظن أنه يعرفها جيداً، تتصرف على هذا النحو من الحماقة. إنها لم تكد تعرف الرجل الآخر في اي حال، وكان أدريان قد سمع بصيت نيكولاس. ولما لم يكن يعلم بلقائها العرضي في الأسبوع الفائت، فقد بدا له الأمر أكثر سوءاً. لم يكن ليصدق أبداً أن تكون سكرتيرته على هذه الدرجة من الخداع.

تردد لحظة أخرى فقط ثم استدار فجأة ومشى إلى حيث كان هيذربنغتون في انتظاره، وهنا شعرت مادلين بذنب أكبر، وبالوضاعة أيضاً، فالتفتت إلى نيكولاس وهي تتنهد:

«أنا آسفة يا سيد فيتال، ولكن من الأفضل أن أذهب معه... فسوف يظن أنني أفرط في نكرانه، وعلى أي حال، فلولاه ما كنت هنا الليلة.»

مد نيكولاس يده واحتجزها، وطوقت أصابعه الصلبة ذراعها المستسلمة، وشعرت بنفسها تضعف، قال بهدوء:

«قد يكون الأمر كذلك. ولكنك الآن هنا، وإنني أريد مرافقتك إلى البيت، وعادة ما أحصل على ما أريد، أما هو فسيتغلب على ما هو عليه.»

كانت في صوته غطرسة فشعرت ببعض الضيق، وردت في تصلب:

«أستطيع أن أتخذ قراري بنفسي... شكراً لك.»

«هل تستطيعين حقاً؟ إنني أتساءل. وفي أي حال فات الأوان وانصرف.»

كان قد انصرف بالفعل، فبعد أن ودع مضيفه وزوجته، غادر الغرفة بدون أن يلقي نظرة واحدة إلى الخلف، وتم اتخاذ القرار عنها.

تلفتت مادلين حولها وهي تشعر بخوف عصبي ينتابها. كانت الغرفة فاخرة الأثاث غاصة بالأغراب، حتى الرجل القائم بجوارها كان غريباً. لا بد أنها مجنونة تماماً! ومن المؤكد أن يظنها أدريان كذلك.

كانت تدرك أن يد نيكولاس لا تزال تمسك بذراعها، فتطلعت إليه بعينين متسائلتين. وما كاد يبادلها التحديق حتى ظهر هارفي ليتحدث إليهما، فتحررت فوراً من قبضته، وحكت ذراعها حيث كان يمسكها وشعرت بالدم يتدفق في عروقها... وتساءل هارفي، وعيناه ترقصان:

«هل متعت نفسك إذاً؟»

ابتسمت له مادلين ابتسامة خفيفة وقالت:

«كثيراً... أشكرك.»

وابتسم هارفي بسخرية وقال:

«تبدين كطفلة تشكر معلمها على حسن المعاملة.»

أصلحت مادلين وضع كتفيها وقالت:

«أسفة.. في الواقع كان الأمر كله تجربة جديدة تماماً بالنسبة الى.»

قال هارفي بسهولة:

«يجب أن تكرري التجربة قريباً مرة أخرى. يوجد عادة رجال قلائل غير مرتبطين مثلي في هذه الاجتماعات - يمتعهم أن تكون هناك امرأة جذابة يتحدثون إليها... »

قال ذلك وهو يلوى قسمات وجهه أمام نيكولاس صراحة. واختلست مادلين نفسها نظرة في اتجاه نيكولاس، ولكنه كان الآن يتحدث إلى رجل آخر كان انضم إليهم، وكانا يبدوان مستغرقين تماماً في حديثهما. ومضى هارفي يقول في صوت خفيض:

«هل ما سمعته صحيح؟ هل سيرافقك نيكولاس حقاً إلى البيت؟»

فهزت كتفيها النحيلتين وقالت:

«هذا صحيح.. ولماذا تسأل؟»

أطلق هارفي صفيراً خفيضاً بفمه وقال في إعجاب:

«الله الله! من المؤكد أنك فتاة صغيرة شجاعة. فالسماح لنيكولاس بمرافقتك هو شيء آخر غير السماح لي بمرافقتك. انتبهي لخطوك. إن نيكولاس يلتهم الفتيات الصغيرات مثلها تلتهمين إفطارك!»

«أوه... لا تكن مضحكاً...»

هتفت مادلين بذلك وهي تدرك مع كل لحظة تمر أنها كانت حمقاء إذ لم تنصرف مع أدريان. فهي هنا لا تفهم شيئاً عما يجري، وليس هؤلاء الناس على شاكلتها... إنها أيضاً لا تنتمي إلى طبقتهم الاقتصادية كبداية. ولذلك فإن مداعبة هارفي ضايقتها الآن. فقالت:

«أنا قادرة تماماً على العناية بنفسي... أشكرك.»

بدا هارفي متشككاً:

«هل أنت قادرة على ذلك حقاً؟»

تطلعت مادلين نحو نيكولاس مرة خرى. كان يشرح للرجل الآخر جانباً من تصميم فني لسيارة، وكان يقيس بأصابعه النحيلة السمراء حجم هذا الجزء الموصوف. وشعرت مادلين بقلبها يفوّت ضربة من ضرباته وتساءلت كيف يكون شعورها وهاتان اليدان تلمسانها وتربتان عليها. شيء ما في هذا الرجل اجتذبها إليه بشدة، وكان من المفزع أن يساورها هذا الشعور. فحتى الآن لم يكن ثمة رجل أثر عليها مثل ذلك، ولا حتى جو بالتأكيد. كانت تجربة جديدة غريبة، وكانت قد بدأت تدرك بعض الأحاسيس عن نفسها لم تكن تعرف أنها موجودة... وهنا تطلع إليها نيكولاس ، وكأنما شعر بإمعانها النظر إليه. وغمغم عندما رأى التعبير المتوتر على وجهها:

«أتريدين الانصراف الآن؟»

تلفتت مادلين حولها في عجز، وقالت:

«حسناً، لا تدعني أصرفك عن حديثك، ففي وسعي أن أجد سيارة أجرة بسهولة.»

كانت تشعر في داخلها بأن عليها أن تسرع بالفرار. إذ بدأ الذعر ينتابها، وهي تعرف ذلك، ولكنها كانت عاجزة عن أن تمنع نفسها.

قطب نيكولاس جبينه، ورسم حاجباه المنسحبان على بعضهما تقدم غاضباً، ورد قائلاً ببرود:

«لن يكون هذا ضرورياً، هارفي ، هل لك أن تشرح لبيلمونت كل ما يتعلق برأس الموزع الجديد؟»

هز هارفي كتفيه قائلاً:

«أجل يا نيكولاس ... هل أراك في الصباح؟»

«بالتأكيد... سأذهب إلى المكتب مبكراً، فلا بد من الذهاب إلى المطار بعد ذلك لمقابلة ماريا .»

وافقه هارفي وهو يبتسم ابتسامة عريضة ويغمز بعينيه لمادلين . ولكنها لم تكن في مزاج يسمح لها بتقدير دعابته. لم تكن ثمة دعابة في هذا الموقف كما تمثل في ذهنها

دهش آل ماسترسون وهم يرونها يتصرفان معاً. ورأت مادلين أن لوسي ماسترسون بدت حقودة على نحو واضح وهي تودعها. اتخذت من قبل

سلوكاً تملكياً إزاء نيكولاس، ولكن من الواضح أنه مهما كان تفكيرها، فلم يكن نيكولاس يبدي أي اهتمام بها.

سرّت مادلين عندما وجدت نفسها معه في الخارج. ارتدت معطفها في القاعة، كما ارتدى نيكولاس معطفه. وكانت السماء تمطر بغزارة وهما يسرعان عبر الفناء إلى حيث كانت تقف سيارة صالون بيضاء منخفضة. كانت أيضاً من طراز شريدان ، ولكن من نوع آخر يختلف عن السيارة الحمراء.

ساعدها على الدخول ثم التف واندس بجوارها، وكانت المقاعد واسعة فاخرة ومريحة للغاية، وشعرت مادلين بنفسها تسترخي وتستند في كسل إلى ظهر مقعدها، وكانت ياقة معطف نيكولاس مرتفعة، وبالرغم من أنه أدار المحرك، إلا أنه التفت إليها قبل أن يتحرك بالسيارة. وخطر لمادلين عندئذ أنه رجل بالغ الوسامة، وقفز قلبها إلى حلقها، وتساءل نيكولاس فجأة :

«لماذا قلت إنك ستركبين سيارة أجرة؟»

انتفضت مادلين من هدوئها، وردت وهي تشعر بعصبية مثل قطة صغيرة :

«رأيتك منهمكاً في الحديث، ولم أشأ أن أزعجك.»

بدا عليه الشك، كان قد أدار مفتاح النور الداخلي الآن، وكانت مادلين تدرك أنها تبدو مذنبة للغاية، فصاحت :

«حسناً، بصراحة أنا مجرد أرملة عادية لا تدعي الجمال، لها ابنة أوشكت أن تكون كبيرة، فأي اهتمام يمكن أن أثيره فيك، أنا لست من طرازك على الاطلاق.»

هز نيكولاس كتفيه بشكل غير ملحوظ تقريباً، ثم أطفأ النور، وتحركت السيارة بسرعة عبر طريق الخروج إلى طريق أوتربيري، وتساءلت مادلين ما إذا كانت ستعود إلى طبيعتها من جديد، وتساءل نيكولاس ببطء :

«لماذا تتخيلين أنني أهتم بك ؟»

شعرت مادلين كأن ركبتيها تهتزان، وتمنت ألا يلاحظ ذلك. كان أقل ما يقال في عباراته أنها تثير الارتباك، ولم تعرف كيف ترد عليها، فقررت أن تتجاهل سؤاله، وقالت :

«أسكن غير بعيد من هنا، عند المنعطف التالي على يمينك، إنه في الحقيقة قرب انفلسايد تماماً، وإذا وقفت في نهاية الطريق ففي وسعي أن أمشي بسهولة

لم يرد، ولكن السيارة انعطفت نحو الحدائق ومضت، فقالت مادلين بصوت خفيض :

«ها هي الشقق.»

فأوقف نيكولاس السيارة فوراً. وكانت الحدائق تبدو مهجورة، والأمطار جعلت الناس يؤثرون البقاء في دفء منازلهم. وتلمست مادلين حقيبة يدها وقفازها في ارتباك وهي تستعد للخروج، ولكنه قال عامداً :

«إنك لم تردي على سؤالي.»

سرت مادلين لأن النور لم يكن مضاء في هذه اللحظة. كان الظلام ودوداً، غير كاشف، وكانت موقنة بأن وجهها أصبح في حمرة الطماطم.

«كلا... هل تتوقع رداً؟»

قال وهو يلتفت نحوها :

«بالطبع، أريد أن أعرف.»

أيقنت الآن بأنه يدرك تأثيره عليها. وكان قربه منها يسلبها أنفاسها وينعش كيانها. ورغم أنها أحست بأنه يتعين عليها أن تظهر نحوه الغضب، اذ كان كل شعورها هو الاحساس بأنها تتوق إلى أن تكون أكثر قرباً منه، وما لبثت أن قالت وهي تحاول بغير نجاح أن تضفي على الحديث سمة أخف :

«أعتقد أنك تداعبني...»

قال وهو يبدو مسروراً :

«كلا، إنني لا أداعبك.»

لم تكن تحلم أبداً بأن يكون ثمة رجل على هذه الدرجة من الازعاج. ولم يسبق لها أبداً في حياتها أن عالجت موقفاً كهذا. وكانت حياتها آمنة في كثير من النواحي، أما نيكولاس فيتال فكان رجلاً آخر مجهولاً تماماً، ما لبث أن غمغم قائلاً :

«أخبريني، هل أنت خائفة ؟ هل هذا يسبب ارتعادك؟ ماذا كان هارفي يقول لك؟»

مد ذراعه عبر ظهر المقعد خلفها وأمسكت أصابعه بكتفها، فأوقفت الرعشة التي ألمت بها :

«لا... لا شيء...»

قالت ذلك وهي تتلعثم، وقد اشتعل كيانها كله بالعاطفة، عاطفة أثارتها لمسة يده، وقال نيكولاس وهو يحدق في جانب وجهها على ضوء مصباح الشارع :

«إنني موقن أنه قال شيئاً.»

وكان قد أضحى قريباً منها على نحو استطاعت معه أن تشم رائحة الرجولة النقية المحيط بها. كان يتحداها عمداً، ويجعلها تدرك كيانها كامرأة. فأحست بحرارة في كل جسمها :

«يجب أن أنصرف...»

قالت ذلك بحزم، ووضعت يدها على مسكة الباب، فانحنى نيكولاس إلى جوارها ومنعها من فتحه. لم يكن ينوي أن يتركها تتصرف هكذا. ففي فترة قصيرة استطاعت أن تثير في نفسه مشاعر كان يظنها خامدة. غمغم في رقة :

«ليس بعد، أريد أن أعرف متى أراك ثانية؟»

فحدقت مادلين فيه وتساءلت :

«هل أنت جاد؟»

فقطب جبينه للحظة، وقال:

«أنا جاد بالطبع... هل تخيلت أن أصاحبك إلى البيت ثم أخرج من حياتك... بهذه البساطة؟»

«لا أعرف... ربما تخيلت أنني...»

«سهلة؟ لم أفكر في ذلك لحظة، متى إذاً؟»

«لا أستطيع أن أفكر لماذا تريد أن تراني...»

ابتسم في شبه سخرية وقال :

«ألا تستطيعين... ربما... فأنت امرأة سبق لها الزواج تبدين ساذجة على نحو لا يصدق.»

قالت مادلين ، وفي نبرة صوتها ما يوحي بجرح شعورها :

«أشكرك...»

«هذا إطراء من نواح كثيرة... هل تعرفين أنك امرأة مرغوبة؟»

ارتعدت مادلين وقالت وهي تتنهد :

«أنا مجرد ربة بيت عادية، مضطرة إلى أن تعمل.»

«ليس بالنسبة إليّ...»

قال ذلك وأصابعه تلوي طية من شعرها العنبري، وأردف قائلاً :

«هيا يا عزيزتي... مساء الغد إذاً؟»

بدأت مادلين تجد صعوبة في المنطق. وقالت :

«لست أدري...»

«ولم لا؟ لا تقاومي يا مادلين. ليس هذا ضرورياً بيننا. أريدك أن تأتي وأعلم أنك تريدين أن تأتي. الأمر هكذا بهذه البساطة. إنك لمضطربة بسببي كما أنني مضطرب بسببك.»

حدقت فيه قائلة :

«أنا... أسبب لك الاضطراب؟»

كانت عيناه مظلمتين لا يمكن قراءتهما، ولكنها أحست بالقوة وراء كلماته. وتقلصت أصابعه بإحكام على كتفيها لحظة، ثم أطلقها، فغمغمت وهي تشعر بمقاومتها تنحسر :

«ربما لا توافق ابنتي على ذلك.»

بدت في صوته الغطرسة من جديد :

«سيكون هذا سيئاً... اسمعي... سآتي لاصطحابك في السابعة والنصف، اتفقنا؟»

أحنت مادلين رأسها، وكانت أعجز من أن ترفض :

«أوه... لا بأس...»

«حسناً...»

وتناول خصلة من شعرها وجذب رأسها إلى الخلف ونظر في وجهها وغمغم :

«كوني في الموعد تماماً.»

فرجت مادلين شفتيها وهي تحدق فيه، فقال وهو يئن :

«لا تدعيني ألمسك يا عزيزتي... وإلا فلن أتركك تذهبين.»

جذبت مادلين رأسها بعيداً عنه وانسلت من السيارة في حركة واحدة ولدهشتها وجدته ينسل بدوره، ووقفا معاً لحظة تحت المطر، وغمغم برقة وقد ذهبت الغطرسة عنه تماماً.

«لا تنسي... »

«كأن هذا في استطاعتي!»

قالت ذلك هامسة في عجز، ثم جرت بسرعة إلى البناية.

٤ ـ الجناح

كانت ديانا تجلس في مقعد وثير بمسندين وتقرأ، عندما دخلت مادلين فتطلعت باسمة إلى أمها:

«هل العم أدريان معك؟»

خلعت مادلين معطفها المبتل قبل أن ترد، وكانت لا تزال تشعر برعشة وتجد صعوبة في الحديث والتصرف، وكأن شيئاً مكدراً حدث... أجابت ببطء:

«لم آت إلى المنزل مع أدريان يا حبيبتي، غادر الحفل قبلي بقليل ليرافق السيد هيذر ينغتون إلى بيته، وجئت أنا مع شخص آخر»

بدا الشك على ديانا، وتساءلت مادلين، وإحساس الذنب يساورها، عما ستظنه ديانا لو قرأت أفكار أمها في هذه اللحظة... تساءلت ديانا على الفور:

«من هو؟»

قبسطت مادلين شعرها بعصبية وقالت :

«السيد فيتال يا حبيبتي»

قطبت ديانا جبينها، كان الاسم مألوفاً بالطبع.. إنه اسم الرجل الذي يمتلك المصنع الجديد. بدت مذهولة

«فيتال؟ هل تعنين صاحب المصنع؟»

«صحيح»

قالت مادلين ذلك وهي تأمل أن تكون ابتسامتها مشرقة. ثم أردفت

«أليست هذه مفاجأة؟.. هل تناولت عشاءك؟»

ولكن ديانا لم ترد على سؤالها، بل نهضت قائلة

«هل تشاجرت مع العم أدريان يا أمي؟»

احمر وجه مادلين وقالت :

«بالطبع لا، لا تكوني سخيفة. أنا لست مسؤولة أمام أدريان عن تحركاتي... أليس كذلك؟»

بدا الشك على ديانا أكثر من أي وقت آخر. كان هذا أمراً غريباً على قدر علمها، فلم يسبق لأمها أن خرجت في إحدى الأمسيات مع رجل وعادت مع رجل آخر ثم إن العم أدريان، على قدر ما تذكر ديانا، هو الرجل الوحيد الذي كانت أمها تخرج معه منذ وفاة أبيها. فما لبثت أن تساءلت بأدب :

«هل استمتعت بوقتك إذاً؟»

قالت مادلين في رد غير كاف :

«أوه... نعم... كان ذلك مثيراً للاهتمام... وكان هناك عدد كبير من الأميركيين كذلك»

«هذا السيد فيتال... إنه إيطالي بالطبع؟»

«بالطبع. لا يعني هذا أنني أعرف الكثير عنه، ولكنني أظنه كذلك»

«أوه»

هزت رأسها. لم تكن قد فهمت هذا كله، ولكن مادلين قررت أن تغير الموضوع. أما بالنسبة الى موعد الليلة التالية، فكان ما تخشاه هو كيف تطرح هذا الموضوع بدون أن تسبب مزيداً من الحرج. وقالت وهي تدخل المطبخ بسرعة

لتصنع قهوة العشاء :

«أرى أنك غسلت شعرك»

«نعم...»

قالت ديانا ذلك وهي تلقي بنفسها في المقعد من جديد. كانت لا تزال تفكر في تصرفات أمها، وإن كان واضحاً أن مادلين لا تريد أن تتحدث بشأنها. وخطر لديانا أن أمها تبدو مختلفة على نحو ما، كأنما هي أصغر سناً وأقل ثقة بنفسها. ونفرت ديانا مما رأته... ترى ما شكل هذا الرجل الذي رافقها إلى البيت؟ أهو شاب أم مسن؟ ولماذا قرر أن يرافق أمها؟ إنه لا يمكن أن يكون مهتماً بها. بلعت ديانا ريقها بصعوبة. كلا، إنها بالتأكيد تصنع من الحبة قبة. إذا كان هذا الرجل يسكن في البلدة فمن المعقول أنه عرض أن يصطحب مادلين في طريقه.

تجاوزا وقت صحوهما الصباح التالي. تأخرت مادلين عن المدرسة وخشيت مقابلة أدريان بعد ما حدث الليلة الفائتة. من المحقق أن يطلب تفسيراً لتصرفاتها، وليس لديها مبرر واحد تقدمه. وليس في وسعها أن تقول إنها ذهبت إلى البيت مع نيكولاس فيتال لأنها شعرت بانجذاب مباشر نحوه... ثم إنها لم تخبر ديانا بعد عن أمسية اليوم... حقاً أصبحت الحياة أكثر تعقيداً.

جلست إلى مكتبها وبدأت تكتب باجتهاد على الآلة الكاتبة. كانت الصفوف تبدأ في التاسعة والنصف، ولكن التلاميذ كانوا يجتمعون في القاعة قبل ذلك لصلاة الصباح. وكان أدريان يتقدم المصلين، ولم يكن يعود عادة إلى مكتبه إلا بعد الحصة الأولى... إلا أنه اليوم عاد مباشرة بعد الصلاة. كانت مادلين منهمكة في الجداول التي تركها لها في المساء السابق، وكانت تأمل الا يتعرض معها بصراحة للمسائل الخاصة إلا فيما بعد. ولكن للأسف خاب أملها، اذ جاء أدريان مباشرة إلى مكتبها، وقال:

«حسناً... وصلت إلى المنزل بالسلامة إذاً؟»

رسمت مادلين على شفتيها ابتسامة وقالت:

«بالطبع، كانت تلك الأمسية تبعث على الاهتمام. أليس كذلك؟»

قال أدريان بشيء من السخرية :

«إلى حد كبير...»

وهنا قررت مادلين أن تواجهه، قالت :

«والآن، اسمع، ليس من حقك أن تنتقد تصرفاتي.»

قال أدريان ، في غضب وازدراء معاً :

«إذا كانت علاقتنا مجرّد علاقة عمل، وهي ليست كذلك، فإنني أشعر بأن من واجبي أن أحذرك فيما يتعلق بفيتال.»

فحدقت فيه مادلين قائلة :

«تحذرني؟»

«نعم أحذرك. نيكولاس يا مادلين رجل خبير بالنساء، وهو ليس بالرجل الذي يمكنك أن تلهي معه، فدعيه يقصر نفسه على أناس من طرازه، لن يعترضوا على تصرفاته.»

«أوه، حقاً يا أدريان... إن السيد فيتال لم يفعل أكثر من مرافقتي إلى البيت...»

«ربما... ولكن كان يمكنه أن... هل نقول... يضايقك؟»

كادت مادلين أن تضحك :

«يمكنه ماذا؟ يا له من تعبير بال يا أدريان ، بالاضافة إلى أنني لا أعتقد أن مستر فيتال يحتاج إلى استخدام هذه الأساليب بخصائصه البدنية.»

تصلبت كتفا أدريان وقال :

«يا عزيزتي مادلين ، أعتبرك دائماً امرأة عاقلة، امرأة أود حقاً أن تشاركني حياتي. ولكنك تغيرت فيما يبدو منذ ليلة أمس إلى تلميذة بعيدة عن روح المسؤولية، وأنا أشعر بخيبة أمل عميقة لذلك.»

«ولكن لماذا؟»

«لأنك رغم زواجك اذ كان هذا الزواج يبدو لي فريداً، فكنت صغيرة جداً، وإذا افترضت أنه كانت لك أسباب للزواج من جو ـ ولا أريد التدخل في شؤونك الخاصة ـ فإنني لا أعتقد أنك خبيرة بأساليب الرجال. نيكولاس فيتال يختلف تماماً عن جو ، الذي يبدو أنه وضعك على قاعدة وأخذ يعبدك من بعيد كما يقولون. إنك تبدين وكأن أحداً لم يمسك. لك مظهر بريء ما زلت أعجب به.

أعرف أن لك طفلة، لكنني لا أعتقد أن الهوى قد مسك من قبل، وأعرف أن فيتال جذاب من الناحية البدنية، ولكنك لا تدركين الميول الحيوانية الفجة التي توجد في بعض الرجال.»

قاطعته مادلين بحرارة، وهي تحس بالحرج البالغ :

«أرجوك يا أدريان... لا تستمر، لا أريد أن أسمع المزيد...»

قال موافقاً وهو يقطب جبينه :

«أنا موقن أنك لا تريدين... الأمر الذي يثبت أنك تحسبين أنك تعرفين ما تفعلين.»

«ولكن ماذا أفعل؟ جئت معه فقط إلى البيت، أليس كذلك؟»

«وهل ستقابلينه ثانية؟»

هزت كتفيها بطريقة عرضية، على قدر ما استطاعت، وغمغمت في ارتباك :

«لست أدري...»

نظر إليها أدريان غير مصدق، ولكنه لم يعارضها، قال :

«مادلين... يا عزيزتي... لا أريد أن أراك متألمة، كل اهتمامي من أجلك... وأنت تعرفين ذلك.»

تنهدت مادلين ومدت يدها إلى حقيبتها، وأخرجت علبة سكائرها وأشعلت واحدة ببطء. كان كل ما قاله أدريان يدور في ذهنها، وكان كثير مما قاله صحيحاً. هل هي على كل هذه الدرجة من السذاجة؟وهي بدت عرضة للانتقاد على نحو مضحك؟ في أي حال، حتى نيكولاس فيتال نفسه قال إنها سلاجة. والآن، فإن فكرة الخروج معه هذا المساء بدأت تحوم في الأفق على نحو مفزع. أليس الأفضل الاتصال به وإلغاء كل شيء الآن؟ وإذا صدق أدريان تماماً بشأنه؟ انها تعرف أنها لن تستطيع الاستجابة إلى موقف كهذا كما يتوقع منها أن تفعل. إنها ليست متعة ليلة سريعة الزوال، بل إنسانة جادة في قرارة نفسها، ليس في نيتها أن تنغمس في وضع أحمق مهما بدا مثيراً في وقته. وبينما هي تفكر في هذه الأمور، عادت إليها ذكريات جو ، لطفه ورقته وحبه الذي وهبه لها بإنكار ذات في الوقت الذي لم تكن تبادله حباً بحب. وبغريزتها كانت تعلم أن نيكولاس فيتال سوف يأخذ منها من حيث الحب والهوى بقدر ما يعطي، وإذاً فلا ينتظر أي منها شيئاً زائداً من الآخر... قالت وهي تتطلع إلى ساعتها :

«إنها التاسعة والنصف... وفصلك ينتظرك.»

تنهد أدريان في صبر نافد، وقال :

«أوه، حسناً... سنتحدث فيما بعد.»

لم تتطلع إليه مادلين وهو يغادر الغرفة، بل عقدت عزمها على ألا يكون هناك حديث آخر اليوم، نالت منه ما يكفي ولا تستطيع أن تأخذ المزيد.

عادت ديانا إلى البيت هذا المساء قبل مادلين ، وكانت قد أعدت المائدة قبل أن تدخل أمها. وكانت تبدو ودودة المظهر على نحو كاف، وقد نسيت فيما يبدو كل ما يتعلق بخانقة الأمس التي لم تحسم. وتمنت مادلين أن تظل ديانا على هذا المظهر الودود عندما تخبرها بأنها ستخرج هذه الليلة... تساءلت ديانا وهي ترقب أمها تشعل سيكارة :

«هل قضيت يوماً طيباً؟»

ردت مادلين في ارتباك :

«إلى حد معقول... هل يضايقك يا ديانا أن أخرج هذا المساء؟»

خرجت الكلمات من فمها سريعة وتركت ديانا في حيرة :

«تخرجين؟ تعنين مع عمي أدريان ؟»

«حسناً، كلا... ليس بالضبط.. مع السيد فيتال .»

بدا الارتباك على ديانا ، ورددت صدى كلمات أمها:

«السيد فيتال؟»

أومأت مادلين برأسها، وسقط قلبها وهي ترقب تعبيرات وجه ديانا . لم تكن ديانا لتسلم بهذا الأمر بلباقة على نحو لطيف. وتساءلت إذا كانت نظرتها لابنتها في الماضي قد اتسمت بمغالاة التعقل، إنها لا تزال صغيرة في أي حال. والنساء في سنها يخرجن مع الرجال، بعضهن أرامل وبعضهن غير متزوجات وحتى بعضهن متزوجات ومع ذلك يخرجن مع رجال آخرين. وعندما تكبر ديانا وتتزوج فقد لا تشعر بأنها مضطرة إلى أن تضع أمها موضع الاعتبار، ولعلها عندئذ تفهم وضع أمها... هتفت ديانا الآن :

«ولكن يا أمي، إنك لا تكادين تعرفينه، وهو ليس انكليزياً...»

قالت مادلين وهي تسحب نفساً من سيكارتها :

«هذا صحيح.»

بلعت ديانا ريقها بصعوبة، واحمر وجهها كثيراً، وبدا عليها الضيق البالغ... فصاحت على نحو طفولي :

«ولكن لماذا؟ لماذا؟ عمي أدريان لن يوافق... أنا موقنة من ذلك.»

هزت مادلين كتفيها قائلة :

«لا تهتاجي هكذا يا حبيبتي، العم أدريان لا صلة له بالموضوع. إنه مجرد صديق. وليس هو بحارس.»

«إنه يريد الزواج منك.»

قالت مادلين في صبر :

«وأنا لا أريد الزواج منه... إنه كبير السن... مصبوب في قوالبه على نحو مفرط.»

«إنه ليس أكبر مما كان عليه أبي...»

تنهدت مادلين قائلة:

«ربما... ولكن هذا لا يغير الحقائق.»

«وهذا السيد فيتال... هل يشبه أبي؟»

«كلا... على الاطلاق...»

صاحت ديانا في عناد :

«أخبريني إذاً عن شكله... من حقي أن أعرف.»

«حسناً، إنه لطيف جداً...»

قالت مادلين ذلك ببطء، وكان من الصعب أن تصف نيكولاس بدون أن تبدو كأنها تجاوزت الحد. كان بالغ الحيوية، بالغ الثقة بنفسه، بالغ التكبر.

«هل هو شاب أم شيخ؟»

قالت مادلين ساهمة :

«حسناً، أظن أنه أكبر مني سناً.»

قالت ديانا في ازدراء :

«هو كبير إذاً...»

لم ترد مادلين ، فقد افترضت أن تبدو كبيرة السن لديانا . ولم تكن هناك فائدة من الجدل معها. ولم تشأ لها أن تنتابها نوبة غضب كما حدث لها في

الماضي... قالت وهي تحاول أن تبدو مقنعة :

«أنا موقنة بأنك ستحبينه...»

فردت ديانا على الفور وهي تنصرف في إباء إلى المطبخ:

«وأنا موقنة بالقدر نفسه أنني لن أحبه.»

أكلت مادلين قليلاً جداً من الطعام الذي أعدته هذا الصباح. لم تكن جائعة، كما أنه من الأرجح أن يتوقع منها نيكولاس تناول وجبة. وتمنت لو أنها لم توافق على الخروج معه، فقد كانت ديانا في مزاج كئيب، ولم تتحدث منذ حوارهما قبل الأكل. فإذا كانت هذه الفورة ستحدث في كل وقت تقترح فيه الخروج، لعل الأفضل أن تتخذ سياسة المقاومة الأقل، وأن تبقى.

ولكن عندما حان وقت الاستعداد للخروج، كانت قد عقدت عزمها على أن تبدو في أفضل حال. فارتدت ثوب كوكتيل من الدانتلا السوداء كان لديها منذ أعوام. كان ثوباً غالياً في الأصل، وجعلته تفصيلته البسيطة وانخفاض فتحته عند العنق واتساعها، لا يبلى بمرور الزمن. ووضعت سلسلة اللآلئ الوحيدة التي تملكها حول عنقها. كان جو قد اشتراها لها منذ عشر سنوات كهدية في مناسبة عيد زواجهما، وبرغم من أنها كانت زائفة، بدت وكأنها حقيقية.

ارتدت المعطف الصوفي الذي كان بلون الكريمة مرة أخرى، وأوشكت أن تكون مستعدة للنزول لمقابلته في السابعة وخمس وعشرين دقيقة عندما دق جرس الباب.

قررت ديانا البقاء هذا المساء، وكانت في غرفة الجلوس فتقدمت لتفتح الباب وهي تتساءل من يكون الطارق. وظهر أمامها رجل طويل عريض المنكبين. كان أسمر البشرة، يلبس سترة من الجلد فوق حلة غامقة. وكانت له عينان هما أكثر ما رأت زرقة في حياتها بل بدتا أكثر زرقة بالمقارنة إلى بشرته التي صبغتها الشمس. وكان شعره أسود مجعداً يميل إلى الزرقة، وكانت أهدابه طويلة مقوسة أيضاً. وكان يبدو من طراز فريد في بلدة مثل أوتربيري حيث كان المال والوسامة لا يجتمعان. فدهشت ديانا تماماً. هل يمكن أن يكون هذا هو الرجل الذي ستخرج معه أمها؟

«نعم...؟»

قالت ذلك بصوت بارد خفيض، وكانت لا تزال تأمل أن يكون شخصاً آخر تماماً، وما لبث الرجل أن ابتسم لها قائلاً:

«هل أنت ابنة مادلين ؟»

«هذا صحيح، أنا ديانا ، هل أنت السيد فيتال؟»

وقبل أن يرد، جاء صوت مادلين يسأل عن الطارق. وخرجت من غرفة النوم ترتدي جواربها، وشعرها يلتف على وجهها على نحو رقيق. وعندما رأت نيكولاس تغيّر وجهها، وشعرت بمعدتها تجيش بسرعة، فغمغمت :

«أهلاً... هل لك أن تتفضل؟»

انتحت ديانا جانباً، وهي لا تزال تشعر بانبهار. كان نيكولاس فيتال مختلفاً تماماً عن كل ما تصورته من قبل. فلم تتخيل في أعتى أحلامها شخصاً مثله يهتم بأمها. وكان أبعد ما يكون عن كبر السن. وشعرت بنوع من الذعر الذي يورث السقم عندما تخيلتهما معاً. إن هذا الرجل لا يشبه العم أدريان ، الذي كان يعامل والدتها بالضبط كأحد المعارف القدامى. أما هذا الرجل فالأرجح أنه يطلب علاقة أشد وثوقاً وودّاً. أفزعتها الفكرة وتمنت خالصة أن يحدث شيء يمنع تواعدهما.

تقدم نيكولاس إلى داخل المسكن، وأخذ يتفحصه بسرعة. وتطلع حوله باهتمام، ومظهره يوحي بأنه يقر الديكور الأزرق والأبيض. كان الديكور لامعاً، حديثاً، ما لبثت مادلين أن قالت، وهي تسرع بوضع قدميها في حذائها :

«هذا هو السيد فيتال يا حبيبتي ديانا ...»

قالت ديانا بتحفظ :

«أعرف ذلك...»

وهنا نظرت مادلين إلى نيكولاس متوسلة فقال:

«أمازلت في المدرسة يا ديانا ؟»

هزت ديانا كتفيها وأجابت بلا اكتراث:

«إنني أدرس في الكلية التجارية.»

«وهل تحبينها؟»

فاستدارت وارتمت بتثاقل واسترخاء على أحد المقاعد، وقالت :

«أحياناً...»

بدا نيكولاس متفكراً. لم تخفه ديانا ولا اجتذبه سلوكها، وكانت تحتاج في رأيه إلى درس في السلوك، وشعر بأنه يريد أن يكون الشخص الذي يلقنها هذا الدرس. وكانت مادلين تبدو منزعجة متضايقة، فأراد أن يعطي ديانا شيئاً مما يدور في عقله. فمهما كانت سمعته، فإن ديانا لا تعرف شيئاً عنها، ولا بد أن تعلم أن أمها امرأة شريفة نزيهة. امرأة؟ هنا ابتسم نصف ابتسامة. إن مادلين نفسها أكبر بقليل من مجرد فتاة. أحس بهذا الشعور المباشر عندما رآها، ولكنه وبخ نفسه لأنه سمح لمشاعره بأن تجاري أفكاره. وما لبث أن تطلع إليها، وعيناه دافئتان حنونتان، وقال:

«هل أنت مستعدة؟»

شعرت مادلين بوجنتيها تلتهبان باللون الأحمر، قالت:

«نعم، أنا مستعدة...»

ثم التفتت إلى ديانا قائلة:

«هل أنت متأكدة بأنك ستكونين على ما يرام؟ فلن أتأخر.»

«سأكون على ما يرام...»

قالت ديانا ذلك وهي لا تكاد ترفع بصرها عن المجلة التي تتطلع إلى صفحاتها، وأردفت:

«لا تأبهي بالعودة سريعاً، في وسعي أن أضع نفسي في الفراش.»

عضت مادلين شفتها، كانت ديانا تحاول صادقة أن تؤذي مشاعرها، ونجحت في ذلك، وكادت الأمسية تفسد قبل أن تبدأ.

نزلا إلى سيارته. كانت دافئة ومريحة، وبينما كان يقودها بخبرة عبر ايفنوود غاردنز، ثم إلى الطريق الرئيسي، كانت مادلين تحاول أن تسترخي وتنسى كلمات ديانا القاسية، ولكن صمتها أغضب نيكولاس، فقال في استياء:

«أظن أنني لست محبوباً من جانب ابنتك... لماذا؟»

هزت مادلين كتفيها وقالت:

«ديانا لا تفهم لماذا لا أتزوج أدريان سنكلير. وفيما يتعلق بها فإن أي إنسان يجاوز الخامسة والعشرين يكون قد دخل طور الخوف. ويكفي أن يوافقها أي

رجل في هذا الشأن حتى يلقى منها القبول.»

غمغم نيكولاس:

«فيما عداي، لماذا؟»

«إنني، أوه، لست أدري أنا أمها.»

ابتسم لها قائلاً:

«لا تبدين في سن تكونين معها أماً لأحد.»

«ربما، ولكنني أمها، لعل هذا جزء من المتاعب.»

عبرا أوتربيري في السيارة إلى فندق ستاج. وتذكرت مادلين أن ابنته وصلت اليوم من إيطاليا، وتساءلت إذا كانت ستتناول معها العشاء.

أوقف السيارة ونزلا سائرين إلى الفندق، واصطحبها نيكولاس إلى قاعة المقهى حيث طلبا بعض الشراب. قال:

«إنك تبدين جميلة جداً يا سيدة سكوت.»

«أشكرك يا سيد فيتال.»

شعرت بأنها تسترخي كلية. كانت تستمتع بوقتها، إلا أن ذكرى ديانا أفسدت تمام متعتها، وابتسم لها نيكولاس وقال وهو يلوي فمه:

«أنا مسرور جداً لحضورك.»

فقطبت جبينها قائلة:

«وهل ظننت أنني لن أحضر.»

«ظننت أنه ربما يكون هناك بعض الضغط من أحدهم لمنعك، الصديق سنكلير على سبيل المثال، إنني مندهش لأنه لم يعترض طريقك.»

ضحكت مادلين في رقة وقالت:

«أوه، إن أدريان قال كلمته بالفعل، وقد نصحني ألا أقابلك ثانية.»

«وهل من حقه أن ينصحك؟»

«ليس تماماً...»

«هذا يتركنا إذاً إلى ديانا، وعندما أفكر في الموضوع أرى أن مشاعرها مفهومة.»

تطلعت إليه مادلين متسائلة:

«لماذا؟»

«ديانا في سن تعرف معها بما فيه الكفاية كل شيء عن الاحتياجات البدنية للرجل والمرأة، وذلك على نحو يجعلها تعلم أننا منجذبان أحدنا إلى الآخر.. وكانت دهشتها أنها وجدتك تخرجين مع رجل تتخيل أنه سيطارحك الغرام.»

أحنت مادلين رأسها لتخفي حرجها، ومضى قائلاً في رقة:

«الأمر يخيفها قليلاً. فهي لم تعتد مثل ذلك من قبل لترضى عنه. وإذا كان أدريان هو عينة لأصدقائك السابقين من الرجال، فإن هذه المشكلة لم تكن لتقوم أبداً.»

قالت مادلين ببطء.

« أدريان هو الرجل الوحيد الذي خرجت معه منذ مات جو .»

«حسناً، هذه هي الصورة إذاً. الأمر مربك بالنسبة اليها. ولن تجدي ماريا مثل ذلك على الاطلاق. إنها لا تشبه ديانا في شيء أبداً.»

«فهمت، والآن ما هي احتياجاتي البدنية بالضبط؟»

قالت ذلك بخفة، فلمعت عيناه بالدفء، كأنما تعانقانها. وغمغم في تراخ، وهو يرقب تعبيرات الصدمة في وجهها:

«سأشرح ذلك فيما بعد.»

واتجه حديثهما بعد ذلك إلى موضوعات أخرى، أقل خصوصية. كان نيكولاس يبدو رفيقاً مسلياً، وحكى لها عن منزله في روما، وعن عمله الذي ورثه عن والده. وكان قد زار بلاداً كثيرة فبدت مادلين مبهورة.

وغادرا المقهى إلى المصعد. وكانت قاعة العشاء إلى اليسار فبدت الحيرة على مادلين . وتساءلت:

«إلى أين نذهب؟»

قال بدون اضطراب:

«إلى جناحي... أرجو أن تطمئني تماماً... سنتناول العشاء هناك، فهو ألطف بكثير.»

«أوه...»

قالت مادلين ذلك ثم ارتج عليها القول للحظة، وما لبثت أن أردفت:

«ولكنني غير موقنة من أنني...»

تنهد وهز رأسه قائلاً:

«لاتكوني مغالية، أنت تعلمين أنني لن أهاجمك!»

قالت خاضعة، وهو يرميها بنظرة غاضبة:

«إني آسفة.»

وصل المصعد، وبينما هما يصعدان تذكرت مادلين ماريا فجأة. بالطبع. ابنته ستتناول العشاء معهما. هذا هو السبب في صعودهما إلى جناحه. كان الممر مفروشاً بالسجاد، وامتد بهما عبر عدة أبواب حتى وصلا إلى جناح نيكولاس . وكان رائعاً من الداخل على نحو جعل مادلين تشهق من فرط الدهشة، وما لبثت أن أدركت بعد قليل أنه خال، وكان نيكولاس قد خلع سترته بعدما أغلق الباب ووقف بجانبها مسروراً لانبهارها... وقال في صوت جاف:

«أرى أنه يروق لك.»

فاستدارت لتواجهه، وغمغمت وهي تبسط يديها:

«إنه أشبه بديكور الأفلام، إنني لا أكاد أصدق أنني هنا، هل أنا أحلم؟»

ابتسم نيكولاس قائلاً:

«كلا. اخلعي معطفك...»

بللت مادلين شفتيها بلسانها وقالت:

«كنت أظن أن ابنتك ستصل اليوم.»

«هذا صحيح، وصلت. لماذا؟»

«وأين هي؟»

أجاب وهو يقطب جبينه قليلاً:

«في غرفتها على ما أعتقد.»

وبينما كان يعبر الغرفة إلى حيث وضعت صينية متقنة الصنع عليها شراب، ضغطت مادلين معدتها بيدها وقالت:

«لاأظن أنني أريد المزيد.»

خطا إليها وخلع معطفها عن كتفيها ووضعه على أحد المقاعد، ثم التفت إليها وكان الجد يبدو في عينيه.

«يا عزيزتي، أستطيع قراءتك ككتاب مفتوح. إن لماريا جناحها الخاص في

الدور الأول، ولو أقامت معي لتشاجرنا.»

ومضى بها لمشاهدة غرف الجناح... ثم قدم لها هدية عبارة عن غصن صغير من زهور الأوركيد اقترح أن تثبته في ردائها، إذ كان في لون شعرها، ففعلت وهي شاكرة مبهورة. ودخل ساقيان بعد ذلك بمائدة الطعام، ووقفا للخدمة، وشعرت مادلين بالحرج لأنها أحست بهما يرقبانها. وأيقنت بأنهما يدركان أنها لم تعتد مثل هذه الخدمة، ففقدت شهيتها وأكلت قليلاً جداً من الطعام الفاخر، ومع ذلك شعرت بأنها متخمة.

وجلسا متجاورين على أريكة منخفضة، وسألها عن والد ديانا ، فقالت إنه كان رجلاً عادياً، فسألها عما تخفيه بشأنه فارتعدت، وبدت في عينيه نظرة حيوان مفترس يستعد للانقضاض... ولاحظ أنها متوترة، خاصة عندما أرادت الانصراف. وبدأت أصابعه تتسلل إلى شعرها المنسدل لتصلحه وراء أذنيها، فرجته ألا يفعل، ولكنه أخذ يدها وقبلها. وقال لها ألا تخف، لأنه لن يؤذيها، وأدركت أنها مذعورة، وأنها ليست نداً له، أما هو فكان قادراً على تحطيم مقاومة أي امرأة بمجرد قوة شخصيته، ولكنه معها شعر برغبة عنيفة في حمايتها، حتى من نفسها إذا ضعفت أمامه إذا لزم الأمر، وقد كان ... قال لها إنه بشر، ويمكن أن يكون خطراً عليها، وعندما قالت له إنها لم تعد تخافه، وإنها تجده مثيراً، طلب منها أن تكف قائلاً :

« مادلين ، أيتها البريئة، يجب ألا تتصرفي على هذا النحو، إنه ليس بالأمر الصواب.»

وقال لها إنه يريدها كثيراً، ولكن ما يشعر به نحوها لم يسبق أن شعر به لأحد قبلها، وسألها إن كان في وسعها أن ترفضه، فأحنت رأسها في نفي صامت. قال برقة، وهو يبعدها:

«وهكذا أنا شهم للغاية. والآن لا تكوني حمقاء. سأصطحبك إلى البيت.»

وبينما كانت تستعيد معطفها، أخذ يراقبها... لم يسبق في حياته أن قابل امرأة هزته عاطفياً مثل هذه المرأة العنيفة، وعرف كثيراً من النساء منذ وفاة زوجته جوانا . ولكن مادلين كانت مختلفة، ولم يشعر بالرغبة في أن يكون قاسياً معها، أراد أن يعرف كل شيء عنها. وكان هذا أمراً جديداً بالنسبة اليه. وشعر

بغيرة غير مفهومة من ذلك المجهول جو .

وتواعدا على اللقاء في الليلة التالية، واقترح عليها أن تحضر معها ابنتها كما سيحضر معه ابنته.

٥ ـ عاصفة العقل والقلب

شعرت مادلين في السيارة بالأسف على انتهاء الأمسية. وقد استمتعت بها كثيراً ، وكان الافتراق عن نيكولاس يبدو لها مثل فراقها عن جزء من نفسها. ووجدت ديانا لاتزال مستيقظة، تجلس في فراشها تقرأ وأخبرتها ديانا في شبه اتهام أنها اكتشفت بقاءها في السيارة نحو عشر دقائق، وسألتها مادلين عن رأيها فيه فقالت إنها لم تستطع الحكم عليه، وهنا أخبرتها بدعوته . فقالت ديانا بعد تردد:

«حسناً ، ولكن لاتتوقعي مني أن أطرب له دائماً. فالأرجح أنه يسلي نفسه على حسابنا.»

وأحست مادلين بأن ديانا تحاول عمداً معاداتها. ولما كانت تعرف ابنتها خطر لها أن ديانا تأمل في خلق المتاعب باستجابتها إلى الدعوة.

وفي يوم الأربعاء وجدت مادلين من المستحيل تقريباً أن تركز ذهنها على عملها، فاتصلت بنيكولاس تليفونياً خلال استراحة تناول القهوة في الصباح، وأبلغته بموافقة ديانا وبمخاوفها لكنه ضحك منها وطلب أن تتركها له.

ووصل نيكولاس في السابعة والربع مساء ، وهو يرتدي بذلة زرقاء انيقة ، واصطحبها إلى الفندق ثم إلى جناحه مباشرة، وكانت مادلين ترتدي فستانا من الجرسيه الأخضر ، و ديانا ثوبا من التيل الوردي، وتولى تقديمها إلى ابنته ماريا ، التي كانت ترتدي بذلة من القطيفة الكحلية، وترفع شعرها الطويل على شكل كورونات حول أذنيها. وكانت تبدو مختلفة كثيراً عن الفتاة الشابة

غير المسؤولة التي تحدث عنها نيكولاس . كما بدت لديانا على غير ما كانت تتوقع ، وكان الجو مكهرباً ، وأدركت مادلين أن ذلك ما تتصوره فقط ، ولكن وجود ديانا كان بمثابة نوع من الدراما الحادة ، وتمنت أن تبدو ديانا هادئة الأعصاب مثلما يبدو نيكولاس وماريا.

وتناولا بعض الشراب ، وقالت ماريا إنها تحب لندن ، وأنها زارتها مراراً وتود أن تعيش فيها بعض الوقت على الأقل ، فقال أبوها مداعبا:

«لا بد إذاً أن تتزوجي رجلاً انكليزيا.»

فهزت ماريا رأسها وقالت بتأمل:

«أعتقد أنني سأتزوج إيطالياً. الايطالي رشيق جدا، ألا تعتقدين ذلك سيدة سكوت ؟»

شعرت مادلين بالحرج من صراحتها ، وردت بهدوء:

«لا أظن أنني أعرف الكثير عن الايطاليين.»

فقالت ماريا مبتسمة:

«أتوقع أن تعرفي عن قريب !»

وسألت ماريا ديانا عن رأيها، محاولة اجتذابها إلى الحوار ، فهزت كتفيها بلا اكتراث ، وقالت ببرود:

«لا أظن أنني أريد الزواج . وأعتقد أن العمل أهم من أن أكون جارية لرجل!»

شعرت مادلين بتوتر أعصابها. قررت ديانا ، فيما يبدو، أن تكون صعبة المراس . وكانت على وشك أن تدلي ببعض أمارات الاستنكار والتوبيخ ، ولكن نيكولاس رفع يده وانحنى إلى الأمام في مقعده قائلا ، وهو يبتسم ببطء:

«جارية لرجل ! وماذا تعرفين عن ذلك ياديانا؟»

اضطربت ديانا في مقعدها ، وقالت في تجهم :

«إنني أعرف أن معظم الرجال يتوقعون من زوجاتهم أن يكن رهن إشارتهم.»

تساءل نيكولاس في سخرية :

«أتفكرين في شخص بالذات ؟ إن معظم الرجال الذين أعرفهم يقومون بدور نشط في إدارة بيوتهم والعناية بأطفالهم . وفي الزواج ماهو أكثر من مجرد العناية بالبيت .»

جحدت ديانا أنفها، لم تكن تريد أن تعرف شيئاً من آرائه . ثم قالت :

«في أية حال، أستطيع أن أفكر في عمل ماهو أفضل من مجرد الاستماع إلى رجل يثير مللي بأفكاره»

أصيبت مادلين بهلع، ولكن نيكولاس رفع حاجبيه السوداوين فقط وبدا مهذباً حتى عيناه كانتا تتألقان وكانت هناك ابتسامة تلوح على زاوية فمه، الأمر الذي جعل ديانا تدرك أنها تبدو حمقاء.... ومالبثت أن تطلعت إلى مادلين وماريا ، وبينما كانت أمها تبدو قلقة ، كانت ماريا تبتسم كذلك ، ثم شعرت فجأة بكراهية نحو الجميع وضغطت شفتيها معا بشدة.

وفشلت الأمسية . وأثر سلوك ديانا عليهم جميعا، وشعرت مادلين بالارتياح لانتهاء العشاء، وإمكانهم الانصراف ، وصحبها نيكولاس في سيارته في التاسعة والنصف . وعندما وصل إلى مجمع الشقق أمام المنزل طلب من ديانا أن تصعد لأنه يريد أن يقول كلمة لأمها، فانصرفت بدون أن تعبأ بشكره على العشاء ، وقالت مادلين في تعاسة:

«يالها من أمسية فظيعة ، لا أدري ماذا ستظن فينا الآن.»

فوضع راحته على رأسها، وتطلع إليها مفكرا وقال :

«إن ماتفعله ديانا ليس من شأنك. كانت مجرد خائفة ومضطربة بشأن أمور لاتفهمها ، كما أنني لم أقدم عوناً كبيراً ، أليس كذلك؟»

وطلب منها اللقاء مرة أخرى ، فأمهلته يومين لتحاول أن تجعل ديانا تفهم. فوافقها على ذلك ، وألقى إليها بنظرة هوى ثم انصرف ....ووجدت مادلين ديانا في الفراش متظاهرة بالنوم، فقررت أنه من الأفضل عدم إيقاظها وبدء شجار معها، وأوت إلى الفراش صامتة بدون أن تلقي إليها حتى بتحية المساء.

وفي الصباح ذهبت ديانا إلى المدرسة بدون كلمة . وتساءلت مادلين لماذا تتصرف ديانا هكذا ؟ إنها لاتدرك إلا أنها هي ونيكولاس صديقان ، وليس هناك سبب لنفورها إلا الغيرة المحضة ، الأمر الذي يجب تحطيمه ، وفي المدرسة أدت مادلين عملها بطريقة آلية ، وذهنها مشغول بذكرى عشاء الليلة السابقة، وبينما كانت تتناول الطعام عند عودتها مع ديانا ، تساءلت الفتاة :

«هل ستخرجين الليلة مرة أخرى؟»

«كلا... لماذا؟»

«إنني أتساءل فحسب ، هل أنت غاضبة مني ؟»

«ولماذا تتصورين ذلك ؟»

بدت ديانا خجلة قليلاً من نفسها ، وقالت :

«لست أهتم بشيء في أي حال ، قلت لك إنه ليس في وسعي أن أتناول العشاء معهم . إنهم ليسوا من طرازنا»

حدقت فيها مادلين بغيظ ، وتساءلت في غضب :

«من هم طرازنا إذاً ؟ أظن أنك ستقحمين اسم أدريان هنا مرة أخرى .»

«حسناً ، أدريان على الأقل لايسلي نفسه على حسابنا. لاأراك تعتقدين أن نيكولاس فيتال سيكون له شأن جاد معك !»

«أعتقد أنك فتاة أنانية قاسية . ولكن لاتتخيلي أن ماتقولينه سيؤثر عليّ . إنني في سن تسمح لي بأن أتولى شؤوني بنفسي.»

هتفت ديانا :

«إنك مصممة على أن تجعلي من نفسك حمقاء !»

أطبقت مادلين قبضتيها . وكان شعورها الأول هو أن تصفع ديانا بشدة فليس من حقها أن تتحدث إلى أمها بهذه اللهجة مهما كانت مشاعرها في هذا الشأن ، ولكنها بدلاً من ذلك نهضت عن المائدة وسارت إلى غرفة النوم وأغلقت الباب ، وتركت ديانا وحدها . والواقع أن ديانا شعرت بأنها تجاوزت الحد ، ولكن كان ثمة شيطان بداخلها يدفعها دفعاً.

وفي المساء التالي ، وبينما كانت مادلين تستعد للخروج تساءلت إذا كانت تتصرف بتهوّر وطيش وهي تخاطر بفقدان صداقة ابنتها من أجل رجل عرفته لأقل من أسبوع فقط . ولكن شكوكها سرعان ماولّت عندما نزلت الى لقائه. وتوجها بالسيارة إلى هاينوك ، وهي قرية على مشارف البلدة . حيث كان هناك فندق لم تدرك مادلين وجوده من قبل . وأوقف نيكولاس السيارة وإذ كان يتفحص المنطقة قال لها إن من الأفضل ألا يكونا وحدهما ولكنها أشعرته بطمأنينتها طالما أنه معها، وأخبرها أنه لا بد له من الذهاب إلى روما لعدة أيام، وفي موقف عاطفي وداعي أخذ وجهها بين راحتيه وعانقها. وفي انتظار استجابتها

له.... أخذت يده ووضعتها على عنقها، فأحست بوخز لشيء في أصبعه ، كان خاتماً منقوشاً مرصعاً بالزمرد ، فتساءلت :

«إنه جميل ، هل أعطتك زوجتك إياه ؟»

فهز رأسه قائلاً :

«جوانا وأنا تعارفنا قبل الزواج بشهور قليلة فقط . قابلتها عندما ذهبت إلى الفرع الأميركي لشركتنا . كان والدها يدير الفرع في ذلك الوقت وأحسبني كنت عندئذ شاباً قابلاً للتأثر، ولم أدرك أن جوانا وجدت فيّ فرصة لتحيا حياة اجتماعية دولية. وعندما حملت لم تكن مسرورة لذلك ولا متني على أنني حطمت حياتها. وللأسف ولدت الطفلة قبل الأوان ، وبينما كانت في دار النقاهة أصيبت بفيروس تركها ضعيفة جدا، ومالبثت أن ماتت بعد ذلك. وقد لمت نفسي بالطبع على ذلك ولكن الزمن يشفي كل شيء ، كما أن ماريا نفسها كانت السبب في استمرارا حياتي .»

«إنني آسفة.»

«كان هذا منذ وقت طويل ...»

قال ذلك ثم خلع الخاتم وأخذ بيد مادلين وسحب خاتم زواجها واستبدل به خاتمه المنقوش . وعندما تطلعت إليه بدهشة قال :

«أنت أول امرأة تلبس خاتماً وهبته لها عن حب . أما الخواتم التي كانت تلبسها جوانا فكانت شيئاً آخر ، وفي وسعك أن تقولي إن أبي هو الذي اشترى جوانا لي . كانت تنحدر من أسرة أرستقراطية في بوسطن.»

وقال لها إنه سيتصل بها يوم الاثنين من روما وأنه قد يذهب إلى فيلتنيا كذلك ، ولكنه سيتصل بها حيثما كان ، وأنه سيسافر غداً وقد يعود الأربعاء أو الخميس . وطلب منها أن تلبس الخاتم في غيبته، فترددت ثم وافقت ، وهي تشعر بأن الأيام القليلة المقبلة ستكون بمثابة أعوام.

وكان نيكولاس يدرك ازدياد انجذابه إلى مادلين ، وكم أصبحت هامة بالنسبة اليه في مثل هذه الفسحة القصيرة من الوقت . أراد أن يعرب لها عن شعوره ، وأن يرجوها الذهاب معه ، والزواج منه على الفور ، ولكنه قرر عكس ذلك . اذ يبدو الأمر تعجلاً من جانبه وقد تظن أنه ينصب لها شركاً . لابد أن

ينتظر حتى يعود من إيطاليا. وشعر بأنه لم يعد يريد الذهاب ، وأن اهتمامه الدائم بعمله أصبح الآن ذا أهمية ثانوية ، بالمقارنة إلى مشاعره نحو مادلين . إنه يريد أن يفعل لها الكثير ، وأن يريها أماكن كثيرة ، ولكنه يريد أولاً أن يقول لها إنه يحبها، وأن يسمع منها أنها تبادله الشعور .... وتركها عند باب الشقة وهو يعدها بالاتصال في أسرع مايستطيع ، وأوشكت أن تبكي وهي ترى أضواء سيارته تختفي على الطريق الرئيسي ، ولكنها لمست الخاتم فشعرت بأنها لم تعد خائفة.

وخلال الأيام التالية عاشت مادلين في فراغ ، كانت تخرج منه عندما يتصل بها هاتفياً . وقد اتصل بها بعد ظهر الاثنين وحدثها عن رحلته ، وأنه يفتقدها ، ولم تكن مادلين ذكرت شيئاً لديانا عن رحيل نيكولاس ، ولو كانت ديانا لاحظت الخاتم فإنها لم تشر إليه . إلا أنه كان هناك مقال كبير في الصحيفة عن سفر نيكولاس ، وأدركت مادلين أن ديانا لم تكن تفوتها قراءته.

وفي يوم السبت جاء أدريان إلى الشقة ليسأل إن كان موعد العشاء الأسبوعي بينهما لايزال قائماً ، وذهلت مادلين ولكنها ردت بالايجاب :

«نعم ، إذا شئت ...»

فقطب جبينه قائلا :

«أما زلت تقابلين هذا الايطالي الملعون ؟»

بدت الدهشة على وجه مادلين لأنها لم تدر كيف عرف أنها تقابل نيكولاس ، ولكنه قال بسرعة:

«أوه، رأيت ديانا في البلدة أمس ، وقالت لي إنك تخرجين مع فيتال .»

امتقع وجه مادلين ، وغمغمت بفتور :

«ربما يكون في روما الآن ....»

فتراجع أدريان متعجباً وقال :

«في روما ؟ هل عجل بالعودة هكذا؟»

«إن له عملاً هناك...»

«حسناً، سأحضر في الموعد المعتاد.»

«لا بأس ، ولكن ياأدريان ، لا أريد تكرار هذا الحوار ، ولا أريد محاضرات . إذا

كنا سنخرج فلنتجنب ذكر السيد فيتال .»
وافقها أدريان ، واحمرّ وجهه قليلاً ، وهو يجاهد ليقول بضع كلمات :
«هل تأخذ ديانا ذلك على محمل حسن ؟»
فردت مادلين بصوت بالغ البرود :
«ألم تخبرك ؟»
«إنها لم تبد متحمسة.»
«إنها ليست كذلك .... ولكنها لا تحاول أن تحبه.»
فقال أدريان بصوت جاف :
«إنها تحبه بقدر كاف فيما علمت .... ولكنها تعترض فقط على ماتسميه محاولاتك السخيفة للتعلق بشبابك.»
صاحت مادلين في دهشة :
«ماذا ؟»
«إنني .... إنني بالطبع وبختها.»
«هل فعلت ذلك حقاً ، أم هل شجعتها ؟ إنك حليفها، ولست حليفي !»
قطب أدريان جبينه ، ومر بأصبعه داخل ياقته ، وقال :
«كانت هذه وقاحة منك يامادلين ....»
فردت بحرارة :
«ولكنها لم تكن بلا سبب .»
«إنها ابنتك يامادلين .»
فصاحت في يأس :
«وهل تظن أنكم تسمحون لي بأن أنسى ذلك .... أوه يأدريان ... انصرف الآن ، ودعني وحدي .... أرجوك.»
فقال في هدوء:
«ديانا في حاجة إلى أب .»
فقالت مادلين في غضب :
«ولكن هذا الأب لا بد ألا يكون أحد سواك !»
«ديانا تعتقد أنني أشبه أباها.»

تطلعت إليه مادلين والكلمات ترتعش على شفتيها. كلمات كانت تعلم أنه ليس في وسعها أن تنطق بها، ومضى أدريان قائلاً بدون توقف :
«أخبرتني بشأنه يامادلين ، وليس في وسعي أن أفترض إلا أن ديانا مثلك ، لأن جو لم يكن ، فيما قلته عنه ، شخصية عاصفة. ديانا تحتاج إلى موّجه ذي نفوذ ، نفوذ رجل اعتاد صحبة الأطفال.»
هزت مادلين رأسها قائلة :
«ألا تيأس أبداً يأأدريان . إنني لا أحبك . ولا أريد أن أتزوج لسبب آخر غير الحب . ألا تستطيع أن تفهم ذلك ؟»
غام وجه أدريان وتساءل :
«أتنوين مقابلة فيتال مرة اخرى»
فكادت تصيح بكلماتها قائلة :
«نعم ، نعم ، سأقابله !»
«ولكنك بصراحة لاتحملينه على محمل الجد ، أليس كذلك ؟ إنه يقابل خلال عمله عشرات من النساء. هل لديك فكرة عن نوع الحياة التي يحياها؟ والنساء اللواتي عاشرهن ؟»
«كف عن ذلك !»
«لن أكف ، لابد لأحد أن يجعلك تتعقلين ! هذا الرجل له امرأة على الأرجح تنتظره في موطنه في هذه اللحظة ! من أين لك أن تعلمي ما يفعل ؟»
لطمت مادلين وجهه بأصابعها قبل أن تتمكن من ، أدريان ويده على خده مذهولاً . وانتابت مادلين ضـ على أحد المقاعد ، وقالت في ضجر :
«أسفة يأأدريان !»
فمضى أدريان إلى الباب ببطء وتساءل :
«هل أنت موقنة أنك تريدين مقابلتي هذه الليلة ؟
«هذا يتوقف عليك ، أليس كذلك ؟ ماذا تظن ؟»
«أظن أنك على صواب ، إن لك حياتك تتولينها ولن أقف في طريقك بعد ذلك
«أوه يأأدريان ... إنك في الحقيقة أصلح من أن تكون لي.»

بادلها أدريان الابتسام ولايزال خده محمراً من أثر أناملها وقال في رقة وهو يخرج :

«لعلك على حق .»

وشعرت مادلين بأن الأمور أصبحت معقدة تثير الحزن والاكتئاب . وتمنت أن ترى نيكولاس الليلة ، فوجوده يمنحها الثقة ، بحيث تبدو سائر المشكلات أقل أهمية.

٦ ـ غولف العواطف الحارّة !

لم يصب عشاء السبت قدراً من النجاح ، وبذل أدريان كل جهده ولكن مادلين كانت تعلم أنه غير سعيد ، وجاء هارفي كامنغز ودعاها إلى نزل قريب للرقص قائلاً إن معه ماري لي و بول لوكاس . وعرض عليها أدريان الذي لم يكن يميل إلى الرقص ، أن تذهب ، ولكنها اعتذرت ، فانصرف هارفي . وقال لها أدريان أنه كان في وسعها الذهاب مرافقة لكامنغز، فردت عليه بأنها تعلم أنه يحاول أن يجعلها تهتم بهارفي ، وتساءلت :

«هل تعتقد أن رجلاً ما يمكن أن يشبه آخر ؟ إنني أذكرك أن الأمر ليس كذلك.»

بدا الشعور بالذنب على وجه أدريان وأدركت مادلين أنها أصابت الهدف، وهنا رأى أدريان الخاتم الزمردي ، فاتسعت عيناه وقال مدهوشاً:

«من أين لك هذا ؟ وأين خاتم زواجك ؟»

«أعطاه نيكولاس لي .... أليس جميلاً ؟»

«جميل جداً ، ولا يقدر بثمن ، أنه أجمل شيء وقعت عليه عيناي.»

شعرت مادلين بقلبها يخفق بشدة . لم يكن نيكولاس قد ذكر أنه على هذا القدر من القيمة ، وغمغم أدريان :

«ربما كنت مخطئاً . وإذا كان فيتال أعطاك هذا الخاتم ، فلا أظن أنه ينوي شيئاً مخادعاً ، كان في وسعه أن يعطيك خاتماً يرضيك إلى حد الاعجاب ، بدون أن يكون غالي القيمة ، ولعل السيد فيتال ليس بالسوء الذي اشتهر به ؟»

غمغمت مادلين مبتسمة:

«إنني متأكدة من ذلك.»

ومرّ الأسبوع التالي ببطء ، وتخللته مكالمات نيكولاس الهاتفية . وتحسنت علاقة مادلين بديانا ، ولكن مادلين كانت تعلم أنه أمر مؤقت . ويبدو أن تقدير نيكولاس بالتغيب أياماً قليلة قد طال ، ورغم أنه كان يتصل بها بدا متحفظاً . وبعد أسبوع ، وفي صباح الأحد كانت مادلين تتناول طعام الافطار عندما دق جرس الباب .

ظنت مادلين لأول وهلة أنها قد تجد نيكولاس على العتبة ، ولكنها وجدت ماريا .... دعتها إلى الدخول يخالج قلبها شيء من الخوف . لماذا جاءت ماريا هذه الساعة من الصباح ، وهي ليست وقت زيارة ؟»

دخلت ماريا وأبدت إعجابها بالغرفة ، ثم تطلعت إلى مادلين قائلة إن نيكولاس طلب منها الحضور

«هل عاد إلى انكلترا ؟»

«كلا ، اتصل هاتفياً في وقت متأخر ليلة أمس .»

حاولت مادلين ألا تبدو مفرطة اللهفة ، وأخبرتها ماريا بأنه كان يتوقع العودة في منتصف الأسبوع ، وأنه يخشى أن تكون مادلين فهمت الأمر خطأ... وشعرت مادلين بالارتياح يغمرها ، وقالت ماريا :

«إنه يريد محادثتك اليوم ، ولا أعتقد أنه يحبذ فكرة الاتصال بك دائماً وأنت في المدرسة.»

ثم سألتها فجأة :

«إنك مغرمة بوالدي ... أليس كذلك ؟»

فأومأت مادلين برأسها ، وقالت :

«هل تمانعين ؟»

«لا ، ليس كذلك في الحقيقة ، وإن كنت أعترف بأن هذه أول مرة يكون فيها مسؤولاً أمام امرأة عن تصرفاته.»

«إنك تأخذين الأمر بهدوء.»

فقالت في حياء :

«فيما يتعلق بنيكولاس ؟ أظن ذلك لم أعش معه طوال هذه السنوات بدون أن أعرفه جيدا ، إنه شخص رائع ، الجميع يحبونه ، إنه سلس الحركة ومسل ، وأرادت كثير من النساء أن يتزوجنه ، غنيات وفقيرات على السواء.»

كانت ماريا تشبه ديانا في عزلتها ، ولكن بينما اختارت ديانا تحطيم سعادة والدتها، أرادت ماريا أن تساعد والدها ، حتى ولو كان ذلك على حسابها.

حملت مادلين فنجان قهوتها الفارغ إلى المطبخ ، وتمددت ماريا على الأريكة في كسل ... ووجدت مادلين أنها تحب ماريا كثيرا... وكان يقلقها أن ماريا قدلا تحبها، ولكنها شعرت الآن بصفاء ، أما ماريا فلم تعرف امرأة عن كثب سوى جدتها، وكانت تتوق إلى شخص تبثه آمالها ومخاوفها. وعرفت أن مادلين يمكن أن تكون هذه المرأة ، فهي متفهمة قادرة على الانصات.

وفجأة فتح باب آخر ودخلت ديانا ببيجامتها تجعد شعرها الأسود. وتوقفت لدى رؤية ماريا ، وألقت إليها بنظرة حذرة ، فابتسمت ماريا ، كانت دائماً ودودة إزاء الناس مهما كانوا وقحين ، ورأت أن ديانا طفلة مدللة مزعجة ، فبادرتها بالتحية ، ولكن ديانا لم تبتسم بل سألتها إن كان والدها موجوداً ، فهزت رأسها نفياً وقالت إنها جاءت وحدها .

«حسناً »

قالت ديانا ذلك وتناولت مشطها ، وبدأت تمشط شعرها الذي كان يبدو عنيداً مستعصياً، وقررت ماريا أن تتجاهل وقاحتها. وجاءت مادلين على

الأصوات . وسألتها إن كانت ستخرج ، فقالت إنها ستذهب الى المدرسة مع جيف ، ليشرف على صغار التلاميذ وهم يلعبون الكريكت . وسألتها ماريا إن كان جيف هو صديقها فردت قائلة ببرود ، وبنظرة احتقار :

«بالطبع... لاأريد الافطار يا أماه ، سأستعد للنزول.»

تطلعت مادلين بقلق إلى ماريا ، و ديانا تضع فنجانها وتمضي بعزم واعتداد إلى غرفة النوم ، من المحقق ألا تكون بينها أية صداقة ، نظرا لعناد ديانا . قالت في ارتباك :

«انا آسفة ، ولكن ديانا لن تقبل الأمر المحتوم فيما يبدو .»

بسطت ماريا يديها وغمغمت ، وهي ترقب مادلين بتفرس :

«لكنها ستضطر ، إنك تدركين أن أبي جاد في ذلك ؟»

شعرت مادلين بوجنتيها تلتهبان ، وتساءلت بصوت قلق :

«كيف تقولين شيئاً كهذا ؟»

«أنا أعرفه ، ثم إنك أول امرأة قدمني إليها بهذه الطريقة !»

شعرت مادلين بمخاوفها تتلاشى ، كانت كلمات ماريا كالبلسم ، ومالبثت ديانا أن ظهرت ترتدي بنطلوناً فضفاضاً وسترة مادلين ذات الفراء . ونظرت بازدراء إلى المرأتين الأخريين وقالت :

«إنها العاشرة والنصف . وسيأتي جيف قريباً في سيارة والده.»

وما لبث الجرس أن رنّ ، فقفزت ديانا إلى الباب ، وجاءت بجيف وهي تتوقع أن تجعل ماريا تغار منها على أن لها صديقاً وسيماً ، ولكن الأمر لم يحدث على هذا النحو . فعندما رأى ماريا حدق فيها بدهشة ، وأدركت ديانا أنها ارتكبت خطأ ، ولكنها اضطرت إلى تقديم كل منهما إلى الآخر. فاتسعت عينا جيف وهو يدرك الاسم . وحيته ماريا بيسر وطلاقة ... وبدت له ـ في رداتها الأحمر الأنيق ـ مختلفة عن الفتيات اللواتي يعرفهن . ولمعت عينا ديانا بغضب وهما يواصلان تبادل النظر . أما ماريا فكانت مسرورة ، اذ تعلمت من وقت مبكر كيف تعامل الأولاد . وعندما خرجا تساءلت مادلين عما ستقوله ديانا لجيف عندما ينفردان ، فقد كانت غاضبة وهي خارجة ، قالت ماريا متفهمة:

«لاتقلقي ، ستعود إلى طبيعتها، ولعلها تعتقد أنه رائع لأنه وسيم ، أما أنا فأظن أنه ذئب ، لن يؤذيني في شيء ، ولكنني لست متأكدة من ذلك بالنسبة الى ديانا .»

وأخبرتها ماريا أن هاري هو الذي جاء بها ، وأنه سيحضر لاصطحابها، وقالت لها إنه رآها ليلة أمس ، فأخبرتها مادلين بأنها كانت بصحبة أدريان ، وأن نيكولاس لم يعترض على ذلك ... وحدثتها ماريا عن جدتها واسمها كريستينا وقالت إنها لاتزال في أواخر الخمسينات ، وأنها كانت في الثامنة عشرة عندما ولدت نيكولاس ، وأن جدها وقع في غرامها من أول نظرة ، وهذا أمر لا يحدث إلا في الكتب على مايقولون ، ولكنها ـ أي ماريا ـ لاتعتقد ذلك ، بل إن المرء ليدرك أحيانا أن ثمة شخص آخر يناسبه على الفور . فأمنت مادلين على قولها إذ كانت قد انجذبت إلى نيكولاس من البداية.

وأخبرتها ماريا أنهما سيذهبان إلى إيطاليا في عيد الفصح ، حيث بيت جدتها في فيلينتيا على ساحل البحر المتوسط ، على مسافة ٥٠ ميلاً جنوب روما، ويعد البيت تحفة رائعة من الجمال ـ مزود بشرفات تزينها أحواض من الزهور ـ وفي ساحته نافورات جميلة ، كما أن لديها يختاً مسمى باسمها ماريا كريستينا يقف الآن في خليج نابولي ، وأن والدها سيأتي به إلى فيلينتيا . وبدا القلق على وجه مادلين وقالت :

«إنه لأمر مخيف هناك هوة ضخمة تفصل بيننا ، وإنني لمدهوشة لأن والدك نظر حتى ناحيتي.»

«نيكولاس سئم نساء المجتمعات اللواتي يتدلهن في حب الرجال الأغنياء من ذوي الوسامة . إنهن يعتقدن أن المظاهر هي كل شيء ، وينفقن الأموال يومياً على العناية بوجوههن وأجسامهن . ولكنك لست مثلهن . إنك تبدين طبيعية ومتواضعة. ولا تحتاجين إلى كورسيهات غالية لتهب لك جسماً رشيقاً، أو كتل من مواد التجميل لتنقية بشرتك . الرجل يريد المرأة التي تبدو في الصباح ، عندما تنهض من الفراش ، في نضرتها نفسها كما كانت وهي تتناول العشاء ، الليلة السابقة.»

ودق جرس الباب ، وجاء هاري قائلاً وهو يبتسم :

«أهلاً .... كيف حال الأرملة الرائعة ؟ تخلصت مني في الأسبوع الفائت تخلصاً

حسنا . كنت هناك ، ونيكولاس لم يكد يخرج من البلاد ، تتناولين العشاء مع ذلك البغيض سنكلير !»

قالت مادلين في استياء :

«أدريان ليس بغيضاً ، ونيكولاس يعرف كل شيء عنه ، وإن كنت لا أعرف لماذا أشرح لك تصرفاتي.»

ودعاها هارفي إلى أن تأتي معهما لتناول الغداء ، لاسيا وأن نيكولاس سيتحدث هاتفياً في الثانية والنصف . وأمنت ماريا على ذلك ، ولكن مادلين اعتذرت بسبب ديانا ، وإن كانت قبلت الحضور بعد الغداء.... وما أن خرجا حتى أسندت مادلين ظهرها إلى الباب في ضعف متسائلة عما يريد أن يتحدث إليها نيكولاس بشأنه ، وانتابها القلق ... وجاءت ديانا إلى البيت في حال سيئة ، فقد قضى جيف فترة الصباح كلها يسألها عن ماريا ، ولو كانت ماريا صديقة لربما ضحكت ديانا من هذا كله، ولكنها كانت تنتمي إلى العدو لذلك فهي محرمة !

وتناولت غداءها في صمت ، ولم تعترض عندما أخبرتها مادلين أنها ستذهب إلى فندق ستاج بعد الظهر لتلقي مكالمة من نيكولاس ... وفي الفندق ، الذي كان لايزال غاصاً برواد الغداء ، نظر إليها موظف الاستقبال باستغراب ، ولكنه رد عليها بأدب عندما سمعها تطلب ماريا فيتال ، وكانت ماريا هي التي فتحت لها باب جناحها وأدخلتها ، وقدمتها إلى مرافقتها الآنسة سايكس ، التي سألتها عن نفسها ثم أخبرتها بأنها كانت سكرتيرة في وقت ما للكاتب جون بروكس .

وجاءها هارفي بشخصيته المرحة ، وتناولوا القهوة جميعا ، وأخيراً جاءت المكالمة و مادلين في ذروة توترها، فأشارت عليها ماريا بأن تتلقاها في غرفة أخرى ، ففرحت لذلك ، وجاءها صوت نيكولاس يرن في أذنها كالموسيقى ، وأخبرها أنه يفتقدها ، ولكنه لايستطيع الحضور قبل يوم السبت ، وإن كان يود الحضور فوراً وذلك لاضطراره لاستقبال بعض العملاء، وقال لها إنه سيلعب الغولف لينفس عن بعض عواطفه الملتهبة ، مع زوج شقيقته وليس مع أي امرأة أخرى ، وطلب منها أن تنتظره في مطار لندن عندما يحضر في نحو السابعة مساء،

فوافقت وهي سعيدة ، وسالت الدموع ساخنة من عينيها وهو يودعها ، ولكنها جففتها بسرعة ، وودت لو تتصرف بدون أن ترى أحدا لتعيش من جديد كل كلمة قالها لها.

٧ ـ السرّ الرهيب

ومر الأسبوع التالي ببطء ، كل يوم منه يبدو بلا نهاية ، وكان أجمل ما في الأيام مكالماته ، ولكنها كانت قصيرة ، وكانت تتلقاها في مكان عملها فلم تستطع أن تعبر عن نفسها بتلقائية ، أما ديانا فلم تفهم لماذا لم يعد نيكولاس، وبدأت تعتقد أنه ذهب إلى غير رجعة ، وقابلت جيف عدة مرات ولكنه كان يتحدث عن ماريا ، وكان من الواضح أنه يأمل مقابلتها مرة أخرى ونفد صبرها عندما قال لها كم هي جذابة ، ورفضت أن تكون ماريا محور الحديث بينهما بعد ذلك.

وحاولت مادلين أن تخبر ابنتها مرات عدة بأنها ستذهب إلى لندن مساء السبت لاستقبال نيكولاس ، ولكنها كانت تغيّر الحديث كعادتها عندما لا يعجبها موضوع ما، إلى أن كان مساء الجمعة وهما يتناولان الشاي ، قالت لها بصراحة:

«سأخرج مساء الغد»

«وكذلك أنا .... سأذهب إلى النادي مع جيف.»

«لن أخرج مع أدريان ... ألا تريدين أن تعرفي إلى أين سأذهب.»

«لابد أنك ستقابلين نيكولاس فيتال .... إسمعي ياأمي .... لابد أن نتفق على أننا سنختلف في هذا الموضوع ، لا أعرف كيف تتصورين أن ينتهي هذا الأمر. ولكنني موقنة أن والدي سيتململ في قبره لو عرف به ، إنني لا أريد أن تؤذي نفسك ياأماه.»

«لن أؤذي نفسي ياحبيبتي. نيكولاس يختلف عما تقولين، أريد فقط أن تفهمي، كوني اجتماعية وحاولي أن تعرفيه جيداً وبشكل صحيح، ربما تحبينه!»

التفتت ديانا بعيداً لتتجنب عينيها ، وقالت :

«أنت تنوين المضي إذاً في هذا الشأن.»

«بالطبع ، ولم لا ؟»

فصاحت ديانا ، وهي مضطربة العاطفة:

«عشنا معا سعيدتين ، والآن تريدين أن تفسدي كل شيء !»

«كيف ؟ إذا تزوجت نيكولاس ؟ كيف يمكن أن يفسد هذا كل شيء؟»

«تتزوجينه ؟ أوه ، ياأمي ... إنني موقنة أن فكرة الزواج لم تخامر عقله. إنك تعيشين في السحاب مع الأحلام.»

«يجب ألا تحدثيني بهذه اللهجة ياديانا .»

«ولم لا ؟ عمي أدريان يوافقني ، ولا يمكن أن يكون كلانا مخطئين.»

«لا أريدك أن تتحدثي عني مع أدريان ياديانا .»

«ثم إنهم ليسو من طرازنا .... وأنت أكبر سنا من أن تتصرفي هكذا!»

ارتج القول على مادلين لدى سماعها هذه العبارة ، وتنهدت بتثاقل ، كان من الواضح أن ديانا تريد أن تقوم بدور النعامة، على أمل أنها مادامت لاتنظر فإن كل الأمور البغيضة ستنتهي بطريقة تناسبها.

وفي الطائرة ثبت نيكولاس حزامه لدى الاقتراب من مطار لندن ، سيرى مادلين مرة أخرى بعد قليل ، شعر بنبضه يرتفع وهو يفكر في لقائها. كانت أياماً عشرة طويلة ، وكان قد نفد صبره وأراد العودة بعد أول يوم. وأرادت أمه التي كانت ستلحق به يوم الأربعاء أن يبقى معها لمرافقتها، ولكنه اعتذر بأن أمامه عملاً في انكلترا ينتظره. وكانت تحثه على الزواج منذ سنوات، وقد اختارت له صوفيا ريدولفي وهي وارثة ثرية من أبناء عمومة والده البعيدين، ولكنه أدرك الآن ، لأول مرة ، أنه لايمكن أن يسمح لنفسه بفكرة الزواج منها أو أي امرأة أخرى ماعدا مادلين. كان زواجه من جوانا شيئاً فارغاً رتبه أبواه إرضاء للتقاليد وشعر بالأسف عندما ماتت ولكن لاشيء أكثر من ذلك ، كلما توفي صديق من معارفه. وأدرك نيكولاس أنه لم يكن قد قابل بعد امرأة يشعر بأنه

يريد أن يحميها، لا أن يستغلها . ومع ذلك تساءل أين تكمن جاذبيته بالنسبة الى مادلين: في ماله أم في شخصه ؟»

ولم يجد مادلين في انتظاره ... ثم سمع وقع خطواتها مسرعة خلفه فاستدار ليجدها على وشك التعلق بذراعه . واعتذرت عن تأخيرها بأن سيارة الأوتوبيس التي أقلتها قد شلت حركتها في ازدحام المرور... وصحبها نيكولاس في تاكس إلى ناديه بشارع سان جيمس ، وفي الطريق عاوده الحنين إليها فعانقها، ولكنها خلصت نفسها منه ، فأخبرها أنه متيم بها، وأنه يحتاج إليها، ويريد الزواج منها، فهمست إليه بأنه لا يعرف إلا القليل عنها، واعترفت له بحبها ولكنها قالت إن هناك شيئاً لا بد أن يعرفه بشأن جو وديانا... وفي النادي ، حول مائدته الخاصة طلب منها أن تروي له كل شيء عن زواجها ، فقالت :

«قتل أبواي عندما كنت طفلة وكفلتني جدتي. وكانت طيبة معي ولكنها كانت صارمة . فكان لابد أن أعود إلى البيت في وقت لايتجاوز التاسعة والنصف مساء، وكانت تريد أن تعرف دائما أين أذهب ومع من. تمردت بالطبع . وبدأت أخرج مع مجموعة من الشباب الطائش . كنت أدرس في الكلية التجارية في ذلك الوقت . وكان لجدتي منزل في كينسنغتون ، وكنت اقضي كل أمسية في الرقص أو في ركوب الدراجات البخارية خلف الشباب ، ثم حدث مالا تحمد عقباه ، وقعت في الخطيئة مع أحد الشبان ، كان قد تراهن بشأني مع زميل له ، ومات بعد ذلك بأسبوع في حادث صدام بدراجته البخارية ، وعندما اكتشفت أنني حامل انتابني اليأس. وكنت موقنة أن هذا الأمر كفيل بقتل جدتي لو علمت به. وظللت حائرة لأسابيع في خوف دائم من أن أصبح أما غير متزوجة، ولي طفل غير شرعي... وكان جو أستاذا للرياضيات في الكلية ، وذات يوم وجدني مغشياً عليّ في الممر فنقلني إلى مكتبه . وكان رقيقاً متفهماً فوجدت نفسي أخبره بكل شيء ، واعترفت له بحماقتي فلم يصرخ فيّ ولم يعنفني. بل جفف دموعي وطلب مني ألا أقلق، وقال إننا سنجد حلاً... ثم طلبني بعد ذلك للزواج فدهشت، ولكنه قال لي إن والدته توفيت وأنه يعيش وحده ويريد أحداً يرعى شؤونه، وأنه سيرعاني مقابل ذلك . كنت في السابعة عشرة عندئذ وكان هو قد جاوز الأربعين. ولم يكن لي خيار لأنني كنت أفكر في جدتي ، وكان زواجي من جو يجنبني

العار ، وكان مافعلته في ذلك الحين يبدو خطأ، ولكنني أستطيع القول إنني لم أفعل أبدا ما يؤذي مشاعر جو بعد زواجنا، وأعتقد أنني أسعدته. أما ديانا فلا تعرف شيئاً عما حدث ، وهي لاتزال تعتقد أن جو كان والدها. وكانا معا على أفضل مايرام، ورغم أنني وجو لم نكن زوجين بالمعنى المفهوم عاشت ديانا سعيدة . وكان جو سعيداً فخوراً بها كأي أب . وعندما بلغت الخامسة أصيب جو بسرطان في الرئة وأجريت له جراحة ولكن حالته ازدادت سوءا ، فعملت سكرتيرة لمدير شؤون العاملين في إحدى الشركات الهندسية ، ومات جو وحزنت عليه ديانا حزناً شديداً ، وكنت أشعر بتأنيب الضمير وأتساءل إن كان زواجنا قد عجل بحالته ، وأخيرا بعنا المنزل الذي كان يملكه وانتقلنا إلى شقة قريبة ، ونفدت النقود فالتحقت كسكرتيرة لأدريان في هذه الوظيفة خارج لندن ، حيث الحياة أرخص والمرتب أعلى ، وكان أدريان هو الذي حصل لنا على الشقة التي نسكنها.»

تساءل نيكولاس إن كانت تنوي أن تخبر ديانا بأمر والدها الحقيقي فقالت إنها لاتعرف بعد. وأبدى إعجابه بجو وسألها إن كانت أحبته ، فقالت إنها أحبته ولكنها لم تكن مغرمة به. فسألها إن كان قد طارحها الهوى فردت بالنفي ، وقالت إنهما كانت لهما غرفتان منفصلتان ، فقال نيكولاس :

«فهمت ، هذا هو السبب في أنك تبدين كأن لم يمسك أحد من قبل ، ولا أعتقد أنك عرفت الحب على حقيقته كما يجري بين الرجل والمرأة ، وإذا كان جو متفهماً، فلا تتوقعي مني أن أعاملك المعاملة نفسها.»

وأفضت إليه بحبها وقالت إنها تريد أن تشاركه كل شيء، وأن تظل معه طول الوقت . وذهبا إلى أحد الملاهي الليلية حيث رقصا متعانقين ، وعرفت أنها تحبه كما لم تحب رجلاً من قبل أما نيكولاس فقد أدرك أنه ظل طول حياته يبحث عن امرأة مثل مادلين ، وأنه يريد أن يرعاها ويعوضها المباهج التي افتقدتها ، بعد أن دفعت ثمنا غالياً للحظات طيش في شبابها.

وأخبرها نيكولاس أنه طلب إلى هارفي أن يأتي بالسيارة لاصطحابها في العاشرة حتى يستطيع أن يعيدها إلى المنزل في وقت معقول ، وعندما عادا إلى المائدة بعد الرقص أخبرها بأنه لا يعبأ بما حدث لها في الماضي وأنه لايجد مايبرر أن

تطلع ديانا بشأن والدها. وقال إن مايهمه هو الزواج منها، بمجرد أن يستصدر تصريحاً بذلك، فقالت إن هذا ماتريده أيضاً. ولكن ديانا لاتزال تفكر في زواج أمها من أدريان. فسألها إن كانت ستتزوج أدريان لو لم يظهر هو في حياتها، فأجابته بالنفي، وقال لها إن ديانا متعلقة بها إلى حد الشعور بالتملك، وأنها ترى أن زواجها من أدريان لن ينتزع منها أمها كما قد يحدث إذا ما تزوجت رجلاً أصغر سناً، ثم أنها أيضاً تخشى أن تنجب أمها أطفالاً آخرين.

غمغمت قائلة ببطء:

«أشعر بأنك على حق.»

«إنني موقن من ذلك. إن هناك تفسيراً منطقياً لكل شيء. وإنني أريد أن نتزوج قبل عيد الفصح. سنذهب إلى فيلنتيا في العيد، إلى بيت أمي. وتستطيع ديانا أن تأتي معنا وأن ترافق ماريا. وستعمل والدتي على أن نبقى منفردين. وقد نتركهم ونذهب لنركب اليخت ونمخر به عباب الأدرياتيك. سيكون الجو رائعاً وسنكون في عزلة تامة، وستعشقين بلادي. ستكون الليالي طويلة متراخية. لاتدعيني أنتظر أكثر من ذلك!»

وعندما جاء هارلي أبلغه نيكولاس باتفاقها على الزواج، وفي الطريق إلى منزلها عانقها بحرارة، وسألها متى يراها في الغد، فقالت إن من الأفضل أن يأتي إلى مسكنها، لأنها تريد أن تخبر ديانا بأمرها، وأن تتيح لهما الفرصة ليزدادا تعارفاً، وشكرته مادلين على أنه وثق بها ولم يغضب بسبب ماروته له عن جو ووالد ديانا، فقال لها برفق:

«لو لم تكن حياتك قد أحيطت بالحماية على نحو ما حدث، لما كنت أنت مادلين التي أحببتها و[illegible]. سأكون لك بمثابة أول زوج تعرفينه. وهذا يعني الكثير بالنسبة إلي ياحبيبتي!»

٨ ـ وجه كاللغز

لم تستطع مادلين أن تخبر ديانا بشأن نيكولاس في تلك الليلة، وكانت قد وجدتها في الفراش عندما وصلت، نائمة على مايبدو، وقضت مادلين نفسها ليلة بيضاء، وصحت في اليوم التالي كأنها لم تنم على الاطلاق. وجدت ديانا منتصبة في الفراش ترتشف بعض محلول الأسبرين فيما يبدو، وكانت تبدو محتقنة الوجه، فسألتها عما بها فأخبرتها بأنها مريضة، وأنها تعتقد أنها أصيبت ببرد. فأعدت لها زجاجة ماء ساخن وبعض الطعام، وقررت أن تخبر نيكولاس بأمرها حتى إذا جاء، لم يقل شيئاً يغضبها. فتذرعت بأنها ستقابل وكيل المالك وخرجت حيث اتصلت بفندق ستاج هاتفياً. وكانت العاشرة والنصف صباحاً، ولكن بدا من صوت نيكولاس أنه لايزال في الفراش، قالت إنها لاتستطيع أن تخبر ديانا بأمرها اليوم، فوافق على ذلك ولكنه طلب أن يحضر، حتى تعتاد ديانا رؤيته. واتفقا على أن يكون ذلك في الثانية بعد الظهر. وشعرت بأنها تواقة إلى رؤيته ولكنها كانت قلقة بشأن سلوكه إزاء ديانا، ووجدتها مضطربة في حالة حزن فمسحت وجهها باسفنجة مبللة بماء بارد. وطلبت منها ديانا بعض عصير الليمون فأعدته لها، ونامت بعد ذلك. فتناولت مادلين وجبة خفيفة بدل الغداء، وهي ترقب الساعة باستمرار. لم يكن قد بقي على عيد الفصح إلا أربعة أيام وكان من المقرر أن يطير آل فيتال إلى إيطاليا يوم الخميس على الأكثر. وكان من المقرر أن يحدث الكثير حتى ذلك الحين.

وجاء نيكولاس بعد الثانية بقليل، وشعرت في حضوره باضطراب كأنها

قطة صغيرة ، فتساءل عماها وعانقها وهنا ارتفع صوت ديانا يناديها ، وبينما كانت تسقيها بعض عصير الليمون ، دخل نيكولاس ، فاتسعت عينا ديانا غير مصدقة وكادت تشهق بالشراب ، وبدت كارهة لرؤيته ... وأشار نيكولاس بضرورة الاتصال بالطبيب ، وخرج للاتصال به رغم معارضة ديانا ، وبناء على تعليمات مادلين . فنظرت ديانا إلى أمها بغضب وقالت :

«تركته يفعل ذلك عن عمد ، كلاكما شخصان بغيضان !»

فشهقت مادلين قائلة :

«ولكن لماذا ؟ لاتريد أكثر من أن تتحسن حالتك في أقرب وقت.»

«لماذا ؟ حتى تشعرا بحريتكما في الخروج متى شئتما ؟»

«لم يكن لهذا داع ياديانا .»

«حقاً ؟ حسناً ، فليحضر الطبيب إذاً ، وسترين إن كان هذا يهمني !»

وكان الدكتور فولدز رجلاً مسناً ، ولكنه جاء على الفور . وبعدما فحص ديانا عاد إلى غرفة الجلوس . وقال إنه لم يجد شيئاً أكثر من احتقان في الأنف بسبب برد خفيف في الرأس ، وأنها تتمارض ، ويجب أن تذهب إلى المدرسة.

أخذ نيكولاس يتحرك متململاً بعد ذهاب الطبيب ، وقال :

«يالهي ، لابد أنها تعتقد أننا مغفلان تماماً ! حسناً لن تستطيع أن تفلت بما فعلت...»

تطلعت إليه مادلين متسائلة :

«وما هذا ؟»

«هذه الفكرة التي تساورها... إنها إذا شاءت أن تتظاهر بالمرض فكل تصرف من جانبنا سيصبح معلقاً ، وربما يلغى.»

«وماذا ستفعل ؟»

قال وهو يدفع بيديه في جيبيه :

«أخبرها بالحقيقة الآن ! من الواضح أنها تدرك أنك تخفين شيئاً»

أمسكت مادلين بذراعه وقالت :

«أنا موقنة أنك محق يانيكولاس ، ولكن ليس في وسعنا أن نخوض في هذا كله الآن .... ليس في هذه اللحظة.»

تساءل بصوت بارد :

«لماذا»

هزت مادلين كتفيها وهي لاتكاد تجد الكلمات ، وقالت :

«أوه ، أعتقد أنني أريد أن تكون الأمور مستقيمة بيننا. والآن ، ستحدث مشادات كلامية ، ويعلم الله متى يطول العداء بعد ذلك.»

عبس نيكولاس ، وقال وهو يتهمها:

«إنك تخشين أن تخبريها يامادلين ! ولكن تذكري أننا في يوم الأحد ، وستصل والدتي يوم الأربعاء ثم تسافر إلى فيلينتيا يوم الخميس... فإلى متى تتوقعين أن تؤخري يوم السؤال هذا؟»

التفتت مادلين بعيدا وقالت :

«لا أدري... حدث الأمر كله فجأة.»

«فجأة ؟ فجأة ؟ أتريدين يامادلين أن أنتظر إلى مالا نهاية حتى تستجمعي بعض الجراءة لمواجهة ابنتك في أن تتيح لك سعادة كبيرة؟»

«كلا... أنا لا أريد الانتظار . ولكنني لا أريد أن أحطم قلب ديانا.»

قال بخشونة:

«قلب ابنتك لأعسر على التحطيم من قلوب أعرفها... فهل ستقولين لها الآن؟»

«إنني... إنني... أرجوك يانيكولاس .»

فتناول معطفه فجأة ، وبدا وجهه كاللغز وإن التهبت عيناه بالغضب.

وقالت مادلين ، وهي تشعر بقلبها يثب من فمها:

«إلى أين... أنت ذاهب ؟»

قال وهو يمضي إلى الباب :

«سأعود إلى الفندق .»

«أوه يانيكولاس ، لاتذهب هكذا.»

ولكنه تجاهل توسلاتها وفتح الباب وخرج وأغلقه وراءه بدون أن تستطيع منعه. كانت هذه تجربة مؤلمة له أيضا. فلم يسبق أن تحدثه امرأة علناً ، وإنه لمن المهانة أن يدرك أنه رغم افتقارها إلى الحسم ورغم جبنها المتعثر ، لايزال يريدها ، يريدها على نحو كان يمكن معه لو بقي أن يلين وأن يوافق على تأجيل زواجها

إلى ماشلت .

وتهاوت مادلين بمرارة على الأريكة وقد وجدت نفسها وحدها. وفاضت الدموع من عينيها. كان وقع مافعلته به يغمرها ويفزعها.

٩ ـ ياهول ماحدث !

وعاد نيكولاس في سيارته إلى فندق ستاج مباشرة . كان في غضب شديد فلم يرد على موظف الاستعلامات عندما حياه . وتجاهل المصعد وصعد الدرج إلى جناح ماريا وهو نافد الصبر ، وفتح الأبواب بشدة ومضى بغطرسة داخل الغرفة.

وكانت ماريا وحدها ، ممددة على أريكة تقرأ مجلة ، وتتناول بين حين وآخر بعض الشوكولاتة من علبة بجانبها. وابتسمت له في فتور وهو يدخل ، وهي تتساءل عما أعاده في هذا الوقت المبكر وفي مثل هذا المزاج الملتهب . وكان وجهه يبدو مظلما كسحابة قاتمة ، وكان عليها أن تضبط نفسها وألا تسأل عما حدث . كانت قد تعلمت منذ سنوات كثيرة ألا تسأل هذا النوع من الأسئلة إلا إذا كانت مستعدة لمواجهة عاصفة بدل الاجابة.

قالت تحييه في مرح بالانكليزية .

«مرحى ... هذه مفاجأة.»

كانا قد اعتادا الحديث بالانكليزية وهما منفردان . لأن نيكولاس قضى وقتا طويلاً في الولايات المتحدة ويعتبر الانكليزية لغته الثانية.

ارتمى نيكولاس على مقعد منخفض ذي مسندين ، وحل أزرار معطفه وقال فجأة :

«أعدي لي شرابا ... أنت تعرفين ما أحب .»

«وأعرف كيف تحبه ...»

قالت ذلك بخفة وانزلقت عن الأريكة برشاقة. وكانت ترتدي بنطلونا أحمر ضيقاً يلتصق بجسمها، وكنزة بغير أكمام وشعرها معقود في شكل ذيل الحصان. وكانت تبدو صبوحة وغير معقدة في عيني نيكولاس المجهدتين. لماذا لم تستطع ديانا سكوت أن تكون طفلة طبيعية متوازنة؟

قالت ماريا وهي تناوله كوب الشراب:

«إليك ياعزيزي، هل تشعر بأنك على مايرام؟»

«كلا ...»

قالها نيكولاس وهو يزداد تقطيباً، بينما غاصت ماريا في الأريكة مرة أخرى وهي تشعر بالارتباك. واستعادت مجلتها و نيكولاس يحدق فيها متسائلاً:

«أين الآنسة سايكس.»

«في غرفتها، لماذا؟ هل تريد رؤيتها؟»

«كلا ... ماذا كنت تفعلين، إلى جانب تغذية نفسك بالشوكولاتة؟»

«ليس كثيرا... خرجنا الى النزهة هذا الصباح كما تعلم. وتناولنا القهوة في مشرب شاي انكليزي أصيل، ولكنني أعتقد أنه مكان عادي.»

قالت ذلك مبتسمة، ولكن نيكولاس بدا عليه السأم، ومالبث أن نهض واقفاً. كان شعور العذاب الذي يتخلل عظامه يغيظ حقاً. وكان يعلم أنه لن ينام الليلة بارتياح.

خلع معطفه وقذف به فوق مقعد، وأخذ يدور في الغرفة متململاً، فبدا كحيوان كبير حبيس في قفص يثير مرآه المتعة في نفس ماريا. كانت فخورة بوالدها ولكنها كانت تعلم أن هناك خطأ خطيراً قد حدث. قالت:

«إنك تجعلني عصبية.»

تجاهل نيكولاس ملاحظتها وواصل خطوه. وسكب لنفسه مزيدا من الشراب وقال:

«هل تريدين الخروج للنزهة؟»

«أعتقد، أن في وسعنا ذلك. هل أنت متأكد أنك تريدني أنا؟»

قال بوحشية:

«متأكد تماماً.»

هزت ماريا كتفيها ونهضت:

«لا تحطم رأسي، سألتك سؤالا بسيطاً، وإنني لأقول استنادا إلى تعبيرات وجهك إنني آخر إنسان تريد أن تكون معه.»

ازداد نيكولاس عبوسا، وتساءل:

«ماذا بحق الجحيم تعنين من وراء هذه الملاحظة؟»

قالت ببراعة:

«حسناً، هناك رفيقات من النساء، وإنني لأقول الآن إن ماتحتاجه هو شيء يختلف عن صحبة ابنتك.»

«حسناً، إنك لمخطئة.»

«وماذا عن مادلين إذاً؟»

«فلتتناسي مادلين. ألن تغيّري ملابسك؟»

«بالطبع، لاتكن رديء الطبع، أنا ماريا ....فلتتذكر!»

لانت عيناه لحظة وقال:

«بالطبع، حسناً.... لاتبقيني أنتظر طويلاً.»

ولطمها على مؤخرتها وهي تمر بجواره فابتسمت له بمرح، مهما كان ماحدث من أمر خاطئ، فلن يقول لها الآن.

ارتدت بنطلونا أبيض من الجرسيه الحريري الثقيل، ومعه جاكيت تناسبه مزدانة باللون القرمزي، ووضعت في قدميها حفاً أبيض لاكمال المجموعة وبدت كشابة في الثامنة عشرة وليس صبية في الخامسة عشرة. وشعر نيكولاس بشيء من الفخر وهي تنضم إليه. كانت تبدو متوازنة واثقة من نفسها، مثله تماماً، وإن كان لايشعر الآن بأنه مدلل أو واثق من نفسه.

كانت سيارة شريدان الحمراء، تقف في مكان الانتظار، فاندست ماريا في مقعدها وهي تشعر بسرور تام لهذا الخروج غير المتوقع. فمنذ وصولها إلى انكلترا لم يجد والدها وقتاً كثيراً يقضيه معها، وشعرت الآن بالسرور لأنهما معا.

وكانت السوق في أوتربيري مزدحمة بعد ظهيرة هذا الأحد. كانت هناك مجموعة من الشباب يقفون هنا وهناك يتحادثون ويتضاحكون، فحدقتهم ماريا على

انطلاق سجيتهم . كان لها في ايطاليا أصدقاء كثيرون ، وكانت تقضي معظم عطلات نهاية الأسبوع في البحيرة، تركب الزوارق وتسبح. وكانت تفتقد الصحبة الطلقة السهلة للفتية والفتيات من سنها، إذ لم تكن تعرف أحداً من الشباب في أوتربيري . ومع ذلك كانت تعزي نفسها بأنها هنا مع نيكولاس وهارفي ، وهذا يعوضها عن الكثير.

وفجأة انتصبت إلى الأمام في مقعدها وقالت :

«هذا هو الفتى صديق ديانا ، يبدو وكأنه ينتظر أحداً . هل تعتقد أنها ربما كانت ديانا؟»

قال نيكولاس في جفاف :

«في الأغلب. لكنه سينتظر عبثاً وقتاً طويلاً ، لأنها لن تحضر . فهي تلازم الفراش.»

بدت نبرته ساخرة فتطلعت إليه ماريا لحظة ، وتساءلت :

«هل هي مريضة ؟»

قال نيكولاس وأصابعه تقبض على عجلة القيادة :

«هكذا تقول .»

«ألا تعتقد إذاً أنه يجب أن نتوقف ونخبره ؟ إنه يبدو وقد سئم وقفته بالفعل ، ربما كان قد انتظر طويلاً.»

هز نيكولاس كتفيه . لم تكن لديه رغبة خاصة في أن يحادث أحدا يعرف آل سكوت جيداً، ولكن بدا أنه ليس أمامه خيار مالم يكن يريد أن يرد على أسئلة كثيرة من ابنته تتصل بهذا الموضوع.

التف بالسيارة حول الميدان وعاد إلى حيث يقف جيف ، وفتحت ماريا النافذة ونادت لتلفت انتباهه:

«هل تنتظر ديانا ؟»

اتجه جيف نحوها وقد بدا مدهوشاً وإن لم يكن مستاء، وقالت ماريا لوالدها بصوت خفيض ، وبسرعة:

«ألا يمكن أن نطلب منه أن يأتي معنا ؟»

قال نيكولاس بغير تحديد :

«أعتقد ذلك .»

«سيكون أمراً عظيماً أن يكون معنا شاب نتحدث إليه على سبيل التغيير.»

«أشكرك.»

قال نيكولاس ذلك وهو يلقي إليها بنظرة جانبية ، فضحكت ، وقالت هامسة ، جيف يصل إلى السيارة:

«أنت تعلم أنني لم أقصد ذلك بطريقة مسيئة.»

وقال جيف وهو يرتكن إلى النافذة :

«نعم ، أنا أنتظر ديانا .»

وقيم بنظراته الصورة الجميلة التي جسدتها ماريا وهي تجلس في السيارة الفاخرة ، وقرر فجأة أنه لم يعد يعبأ إذا لم تحضر ديانا . وقالت ماريا وعيناها تلمعان :

«إنها لاتزال في الفراش ، ولن تحضر . هل أصبحت الآن خالياً؟»

ضيق جيف عينيه وقال :

«أظن ذلك .»

«ملذا لاتأتي معنا إذاً ؟ لا أعرف بالضبط أين نذهب ،ولكنه سيكون أفضل من بقائك هنا.»

احمر وجه جيف ، وتطلع إلى نيكولاس قائلاً :

«ولكنني أعني .... ألن .... يعترض ....صديقك ؟»

فضحكت ماريا بمرح وقالت على سبيل التقديم :

«هذا والدي ، ولن يعترض ، اركب .»

وأفسحت له مكاناً في المقعد الأمامي حتى يتمكن من الجلوس بجوارها. وتذكر نيكولاس أنه في الليلة السابقة فقط كانت مادلين تحتل هذا المقعد بجواره تماماً. وتصاعد غضبه من جديد وانطلق بالسيارة بعنف أذهل حشداً من الشباب كانوا يرقبون السيارة عن كثب معجبين.

وكان نومه سيئا في تلك الليلة على ماتوقع. أخذ يتقلب متململاً في الفراش الكبير ، ونهض مرتين لتناول بعض الأسبرين بدون نتيجة . وصحا في السابعة في مزاج سيء ، ورأسه يوجعه على نحو فظيع.

ضيّع الوقت في قراءة الصحف ، ولم يظهر في المصنع إلا في الحادية عشرة ، وما كاد يخطو عبر الأبواب الزجاجية للمبنى حتى هتف به أحد موظفي الاستقبال:

«سيد فيتال، هناك سيدة شابة تنتظر مقابلتك ياسيدي، إنها تنتظر منذ العاشرة، قالت إنها جاءت لمسألة شخصية، لذلك جعلتها تنتظر في غرفة المقابلات.

ازداد نبض نيكولاس : مادلين ! شعر بالدم يطرق أذنيه . من تكون غيرها ! وعبر المدخل الواسع وفتح باب غرفة المقابلات بقوة ، وعندئذ نهضت فتاة من المقعد بجوار المكتب .... كانت ديانا سكوت !

وأذهلته خيبة أمله لعدة ثوان . ولم يصدق أن مارآه صحيحا، واقتضاه الموقف جهداً ليستجمع أمره ويغلق الباب ، وكانت عيناه في برودة الثلج وهو يتطلع إلى الفتاة التي قبضت يديها في حجرها. قالت في صعوبة وهي تغوص في مقعدها من جديد :

«صباح الخير ياسيد فيتال .»

لم يرد عليها مباشرة ، بل مضى يبطء ملتفاً حول المكتب وجلس في مواجهتها في المقعد المنخفض ذي المسندين.

«لماذا أنت هنا ؟»

فاحمّر وجهها وقالت :

«سأخبرك يا سيد فيتال . إنني أريدك أن تكف عن مقابلة والدتي ...»

ثم تنحنحت قائلة :

«إلى الأبد .»

كانت التعبيرات على وجه نيكولاس مخيفة ، وتساءل بوحشية :

«هل أنت جادة ؟»

فابتلعت ريقها بصعوبة وقالت :

«بالطبع . اسمع.... كنا سعيدتين حتى ظهرت ، فمزقت أوصال حياتنا وقلبت أمي عليّ.»

«أنت التي قلبت أمك عليك وليس ذلك من فعلي .... رباه ....إنني لا أرى كيف يكون في وسعك أن تقولي ذلك وهي تفضلك في تفكيرها على سعادتها.»

«حسناً، إنها لم تتصرف على هذا النحو من قبل ، إنها تعاملني وكأنني طفلة تعوق أمورها.»

«هراء!»

«بل هو صحيح ، إنها تعتقد أنك تفكر فيها جدياً لمجرد أنك تعطيها اهتماماً كبيراً.»

قال بغضب وهو ينهض :

«لست أدري كيف تجرؤين على القدوم إلى هنا والحديث عن والدتك بهذه الطريقة الشنيعة ، من تظنين نفسك في أي حال ؟»

ضغطت ديانا شفتيها إزاء غضبه وقالت باحتقار :

«انا أحب والدتي ولا أريد أن يلحقها أذى ، إن عمي أدريان يريد الزواج منها، فهل تعتقد أنه سيظل يريدها... بعدك؟»

«اخرسي !»

قال نيكولاس ذلك وهو يشتعل غضباً ثم اردف :

«كيف تجرؤين على القول بأنك تحبين والدتك ؟ إنك لاتحبين سوى شخص واحد هو نفسك ! إنك تفزعين خوفاً من أن تتزوجني والدتك. ولاتهتمين إذا كانت ستضار أم لا. كل مايقلقك هو أن تفقدي مكانتك فقد تنجب أطفالا آخرين .... أليس كذلك ؟»

امتقع وجه ديانا كأنما صفعها ، ونهضت وهي تترنح ، وهتفت بحدة :

«أعتقد أن الأمر كله مثير للتقزز ، كيف يمكنك أن تقول لي أمورا كهذه ؟»

«لأنها صحيحة .... لاتراوغيني ، هذا لن يفيدك ، أستطيع أن أستشفك كما أرى خلال الزجاج.»

ووضع يديه على المكتب وهو يواجهها قائلاً :

«ما هذا الذي يقزز في الزواج ... في أي حال ؟»

«لا ... شيء ... ولكنك لست مثل أبي أوعمي أدريان . إنك ... إنك لفظيع !»

تنهد نيكولاس في كلل ، وهو يحاول جهده أن يضبط نفسه . وقال بهدوء:

«أخبريني لماذا ؟ وإذا لم تستطيعي فسأخبرك أنا.»

لوت ديانا أصابعها معاً وقالت :

«ماذا تعني ؟»

«أعني أنك حتى هذه الأسابيع الأخيرة لم تفكري في والدتك كامرأة لاتزال شابة جذابة . بل إنك لاتقبلين ذلك حتى الآن .... تظنين أنني فظيع لأنني لاأتفق مع أفكارك التافهة بشأن الرجل الذي يجب أن يتزوج والدتك . ولا تهتمين إلا بنفسك ياديانا كما قلت من قبل . ولو كنت تهتمين بأمر والدتك لتوقفت لتفكري في أنها ربما وجدت شخصاً يجعلها سعيدة ... سعيدة حقاً.»

صاحت ديانا ، وصدرها يعلو ويهبط :

«لن تكون سعيدة أبدا معك !»

لم يستطع نيكولاس أن يتحمل المزيد ، فصاح :

«اخرجي ! اخرجي قبل أن أفقد أعصابي !»

نهضت ديانا وتراجعت إلى الباب ، وصاحت بصوت مرتعش ، قبل أن تخرج بسرعة وتصفق الباب خلفها:

«إنك لبغيض !»

غاص نيكولاس في المقعد بجوار المكتب بعد ذهابها ، وأشعل سيكارة بأصابع مضطربة . يالهول ماحدث ! وتساءل كم من الرجال واجهتهم بنات زوجاتهم المقبلات . وهز رأسه في كلل . لايستطيع والأمور كما هي الآن أن يصف مادلين بأنها زوجته المقبلة . فهما بعد ماحدث بالأمس بالكاد يصبحان صديقين . وتنهد .... سئم الأمر كله تماماً . إنه موقن أنه يريد الزواج من مادلين أكثر من أي شيء آخر في الدنيا ، ولكن كيف يقبل زواجاً تلقى فيه ديانا أهمية أكثر منه ؟

١٠ ـ الابنة الهاربة

وجدت مادلين الأيام التالية بعد رحيل نيكولاس المفاجيء، لا تحتمل. وكانت تقوم بعملها بطريقة آلية وتبكي في داخلها على الحب الذي فقدته. وكانت ديانا قد بقيت في الفراش طوال نهار الأحد، ولكن مادلين لم تجد الشجاعة لأن تخبرها بما قاله الطبيب. وكانت قد رأت ابتسامة الرضى على وجه ديانا عندما سمعت أن نيكولاس رحل وأصيبت في مشاعرها على نحو مفرط لم تستطع معه أن تقول المزيد.

وفي يوم الاثنين ذهبت ديانا إلى المدرسة كالمعتاد وبدأت تعامل مادلين بعاطفتها القديمة. ورغم أن مادلين استسلمت في صمت، فإنها لم تستجب لهذه العاطفة، لم تستطع ذلك، وكانت متعبة ذهنياً وتخاف الذهاب إلى العمل خشية مواجهة أدريان ، على أن أدريان ، بعدما استفسر منها إذا كان نيكولاس قد عاد يوم السبت بعد خروجه، لم يعقب أكثر من ذلك، فشعرت مادلين بارتياح، إذ لم تكن تعرف ما يمكن أن ترد به عليه.

وتمنت أن يتصل بها نيكولاس هاتفيا لكنها أصيبت بخيبة أمل. وشعرت بالعجز، من المؤكد أنه لا ينوي إنهاء ما بينهما على هذا النحو. لقد حذرها أدريان بالطبع. أنه ليس من ذلك الطراز الذي يمكن أن يرتبط به المرء، ولكن هذا لم يكن السبب في خروجه العاصف من الشقة. لقد احتقرها لافتقارها إلى الحسم، ولجبنها إزاء ديانا ، وفوق كل شيء، لرفضها أن تضعه هو في المقام الأول.

ودخلت ديانا المنزل مساء الاثنين وقد اجتاحتها فورة غاضبة... وسألتها

مادلين في ضجر عما بها، فاستدارت نحوها في غضب وقالت ثائرة:
«ابنة صديقك الغالي خرجت بالأمس مع جيف.»
«خرجت مع جيف؟ كيف حدث هذا؟ ومن أين لك أن تعرفي وكنت في الفراش.»
فاحمر وجهها وقالت:
«أخبرني جيف. قابلته في ساعة الغداء، ولم يستطع الانتظار ليبوح بالأمر. كان ينتظرني في السوق أمس عندما مرت به ماريا ووالدها في سيارتها الأنيقة. فأبلغته ماريا بأنني مريضة ولن أحضر واقترحت عليه أن يذهب معهما! وتوجهوا إلى لندن وأنفقوا بعض الوقت في النزهة ثم تكفل لهما السيد فيتال بعشاء في أحد محلات الشواء الفاخرة بالويست إند. كان بودي أن تسمعي جيف! كان يتفاخر بما حدث. ويقول إن ماريا رائعة...»
ولم تستطع أن تمضي في الحديث لتقول لأمها إن جيف بدأ يلتهب في حبه لها وقال لها ما معناه إن ماريا ليست مثلها، وإنه لو انفرد بها لاستطاع أن يستمتع حقاً. كما قال إن ديانا مفرطة الاحتشام ويتعين أن تصحو للحياة وأن تكف عن العيش في عالم الأحلام. كانت ديانا شابة يساورها الارتباك. لم تستطع أن تحدث احداً بما جرى فشعرت بأن الحياة في هذه اللحظة بالغة التعقيد.
قالت مادلين في تشكك:
«حسناً، هذا لا يقلقني، وإنني لا أكاد أعتقد أنه سيكون لماريا شأن كبير مع جيف إيمرسون، إذا لم يكن لأبيها شأن بالموضوع في أي حال.»
شعرت ديانا بخديها يحترقان، وذكرى محاورتها مع نيكولاس فيتال هذا الصباح لا تزال ماثلة في ذهنها. فاختلست النظر إلى أمها. كان يبدو أنه لم يحدثها هاتفياً. وكانت تتوقع أن يفعل وتوقعت أن تواجه أمها المتاعب حقاً. لكنه لم يفعل فتساءلت إن كان قد حمل ما قالته على محمل الجد، وتمنت هذا. حتى ما حدث من جانب جيف لن يبدو سيئاً عندئذ. ومن الواضح أن مسلك أمها يوحي بأن كل شيء قد انتهى.
يوم الأربعاء السابق في عيد الفصح بدأ العرض المسرحي الذي تقوم فيه ديانا بدور في الكلية. وكان على مادلين أن تذهب، ولما كان أدريان

ذاهباً بدوره اقترح أن يذهبا معاً. وافقته مادلين بغير اكتراث فدهش، ولم يكن بوسعه أن يدرك ما حدث من سوء بينها وبين نيكولاس فيتال، لكنه كان يستطيع أن يحكم من وجهها الفاتر وعينيها المنهكتين أن أمراً سيئاً حدث. وقرر ألا يقول شيئاً آملاً أن تعود الأمور إلى طبيعتها بينها وبينه.
وكانت مادلين موقنة أنها لن تستطيع التركيز على المسرحية، ولكنها لم تستطع أن تتراجع. ولما كانت ديانا قد بدت معقولة على نحو مريح طول الأسبوع شعرت بأن هذا أقل شيء تفعله إزاءها للابقاء على الانسجام بينهما.
وبينما كانت تتزين للأمسية أخذت تدرس تعبيرات وجهها في المرآة. كانت عيناها تحيط بهما هالتان سوداوان بسبب افتقارها إلى النوم، فجعلا لها مظهراً منهكاً، وشعرت أن كل سنة من سنواتها الثلاث والثلاثين تظهر عليها. وكان شحوب وجنتيها يؤكد الاعياء البادي في عينيها، فانصرفت عن صورتها في المرآة وهي تشعر بالهزيمة.
ارتدت المعطف الأخضر الغامق ونزلت لمقابلة أدريان عندما جاء في سيارته. ولم يكن بوسع أدريان، وهو يحبها، إلا أن يلاحظ حالة التعب التي تعانيها، ووجد نفسه يتمنى أن يرى نيكولاس فيتال ما فعل.
توجها في صمت ودي إلى الكلية، وكل منهما مشغول بأفكاره. وكانت القاعة تغصّ بالحضور، ولكن مقعدي أدريان كانا في الصف الأمامي محجوزين لهما. وما كادا يقتربان من المقعدين حتى هتف صوت:
«تحية يا مادلين!»
استدارت مادلين وقلبها يخفق بشدة، وظنت للحظة أنه نيكولاس، وبدلا من ذلك وجدت نفسها وجها لوجه أمام هارفي كامنغز، قالت بهدوء وهي تغتصب ابتسامة:
«أهلاً يا هارفي.»
كان مع آل ماسترسون وسيدة أخرى شابة، ولكنه نهض من مقعده ليتحدث إليها. ومضى أدريان في سيره ليتركها وحدها، وتساءل هارفي بجد وهو يدرس وجهها بفضول:
«ماذا حدث يا عزيزتي.»

تمتمت بارتباك:
«ماذا ؟ لا أعرف ماذا تقصد.»
«تعرفين بالتأكيد. إنك لم تقابلي نيكولاس اخيراً . أما أنا قابلته، إنه يبدو كالدب المصاب في رأسه، ولكنه لا يحدث أحداً بأن هناك مّا يسوء. وأعتقد انه في وسعي أن احزر الآن.»
غاص قلب مادلين وهو يواصل حديثه:
«وصلت أمه اليوم من إيطاليا، وأحضرت معها سيدة هي ابنة عم نيكولاس من بعيد، وأتصور أنها تأمل في أن ترتب شيئاً مدبراً للاهتمام بينهما.»
ثم تابع كلامه بصوت خفيض:
«اتصلي به تليفونياً. ولا تدعي أمه تحقق غرضها مستفيدة من الظروف. نيكولاس يكاد يجن جنونه. صدقيني.»
ضمت مادلين يديها معاً وقالت:
«ولماذا إذاً لا يتصل بي هو ؟»
هز هارفي كتفيه قائلاً:
«ربما يلومك على ما حدث، أنت وابنتك. نيكولاس ليس متكبراً ولكنه لن يعفر رأسه بالتراب أمامك. ولهذا فأنا أعرف أن هناك شيئاً كبيراً يزعجه.»
هزت مادلين رأسها وقالت:
«هناك بالفعل. أوه يا هارفي . هل تعتقد حقاً أنه يتعين عليّ أن أتصل به.»
«طبعاً.»
ثم اختطف نظرة إلى أدريان وقال:
«هل قال لك هذا الفتى شيئاً آخر؟»
«كلا، بالطبع لا، إنه لا يعرف شيئاً عن ذلك.»
وابتسم هارفي ثم قال:
«حسناً. كنت سألكمه في انفه.»
ثم قبض بأصابعه على رسغها وقال:
« نيكولاس فتى عظيم. أعرف أنه أفضل أصدقائي، عملنا معاً سنوات، لذلك فمن الطبيعي أن أتحيز له. ولكن لم يسبق أن انتابته مثل هذه الحالة بشأن فتاة

من قبل.»
رسمت مادلين على شفتيها ابتسامة واستدار أدريان في مقعده في هذه اللحظة، وقال:
«من الأفضل أن تأخذي مقعدك الآن يا مادلين . العرض على وشك أن يبدأ.»
تطلع إليها هارفي ينتظر الجواب فأومأت له برأسها ببطء، فغمغم:
«عظيم.»
ثم انصرف إلى مقعده بعدما ضغط على رسغها واتخذت مادلين مقعدها، وقال أدريان والأنوار تخبو تدريجياً.
«أرسلت تذاكر كثيرة للمديرين، وأتساءل لماذا لم يأت السيد فيتال بنفسه.»
«أمه ستصل من إيطاليا اليوم، وهارفي هو مساعده، لذلك فاظن أنه يقوم بكل هذه الواجبات.»
فأومأ أدريان برأسه وارتفع الستار، وكانت المسرحية جيدة، ولكن مادلين لم تفهم منها شيئاً تقريباً، لفرط انشغالها بأمورها الخاصة. تستطيع إذا شاءت أن تتصل بنيكولاس غداً. ولكن السؤال الآن هو ماذا في وسعها أن تقول؟
ولم يكن لدى نيكولاس وقت صباح الأربعاء للذهاب إلى مطار لندن والترحيب بأمه، وأرسل ابنته ماريا في السيارة التي تخص الشركة مع السائق. ولذلك كانت مفاجأة له عندما عاد إلى الفندق وقت الغداء، ليجد أمه تنتظر ليس وحدها ولكن معها كذلك صوفيا ريدولفي .
قبل والدته وسمح لصوفيا بأن تقبل خده. كانت هذه حالة طارئة لم يعمل لها حساباً. صحيح أنه كان يعلم مدى اهتمام والدته بزواجه من صوفيا لأنها مناسبة تماماً، لكن نيكولاس لم يكن يريد لأحد أن يخطب له، حتى وإن كان يعجب بصوفيا لأسباب أخرى.
كانت تبدو جذابة في ردائها من القطيفة الحمراء، وكانت لا تزال ترتدي معطفاً من فراء المنك الفضي. فأدرك نيكولاس أنها من طراز النساء اللواتي ينبغي أن يتخذ منهن زوجة. فهي تستطيع أن تكون المضيفة المثالية للحفلات الاجتماعية التي يمكن أن يفرضها عليه الزواج، وتعرف الشيء الصواب الذي يمكن أن تقوله لرفاقه في العمل. وكان انحدارها من والدين موسرين يستبعد أي مشكلات ذات

طبيعة ارتزاقية، وكان موقناً من أنها ستكون لماريا زوجة أب تثير الاعجاب.

لماذا إذاً تجعله فكرة الزواج منها يشعر بالغثيان؟ إنه يعرف الاجابة بالطبع فمنذ قابل مادلين بهتت كل النساء أمامه وأصبحن لا يساوين شيئاً. مستحيل أن يعيش الآن مع امرأة أخرى. حتى في هذه اللحظة تاق جسمه كله طلباً لمادلين، لقربها، ودفئها، وحبها. لماذا لم تتصل به لتقول له إنه مهما كانت العقبات التي تقيمها ديانا في طريقها ستتزوجه فوراً، بدون جدل؟

وتطلع إلى والدته. كانت سيدة طويلة قوية البنيان، تحمل سمات أسلافها، وكانت جميلة برغم أنها في الخمسينات من عمرها. حاولت لسنوات أن تسيطر على نيكولاس، وتجعله يدرك مسؤولياته، لكن بدون جدوى. كان نيكولاس مفرط الشبه بها على نحو لم يسمح لها بأن تهيمن عليه وكان يحطم قلبها أن تراه يضيع حياته بدون أن يكون له أبناء يحملون سلالة آل فيتال. وكانت تأمل في إحضار صوفيا معها إلى انكلترا لعله يستعيد صوابه ويدرك كم هي ملائمة لأن تصبح زوجته وأم أولاده.

قالت له:

«الآن وقد لمست رفضك الانتظار عدة أيام قلائل للسفر معي قررت أن تكون صوفيا رفيقتي. وفي وسعها أن تعود إلى إيطاليا معك.»

خفف نيكولاس ياقة قميصه عن رقبته، تحت رباط عنقه، وغمغم:

«حقاً. إنني مسرور أن كانت صوفيا رفيقتك.»

ثم مر بيده على ظهر عنقها وتطلع إلى ماريا كأنما ينتظر منها الالهام. ولكنها كانت تعرف تدابير جدتها فرفعت كتفيها خفيفاً بطريقة يائسة، بينما قال نيكولاس:

«قد لا احضر الى ايطاليا في أي حال.»

قالت صوفيا:

«أوه يا نيكولاس، لم لا؟ إنك تعلم أننا كنا نتطلع إلى ذلك. كنت أرى أن اجتماعنا معاً نحن الثلاثة سيكون أمراً رائعاً.»

بلل نيكولاس شفتيه الجافتين وقال:

«حسناً، طرأ أمر لم يكن متوقعاً. فلنذهب الآن لتناول الغداء في المطعم، وفي

وسعنا أن نناقش هذا فيما بعد، بعد أن ترتاحا. لا بد أنكما تشعران بغاية التعب من رحلتكما.»

وتناولوا الغداء، ثم ذهبت المرأتان بعد ذلك إلى غرفتيهما للراحة بدون أن تخوضا في خططه. وشعر نيكولاس بسرور لهذه الفسحة المتاحة من الوقت وصحب ماريا إلى جناحها. وكانت الآنسة سايكس تنعس في مقعد ذي مسندين لكنها استيقظت عندما دخلا. وكان نيكولاس قد ألف أن يغيظها بدون شفقة لكنها شعرت اليوم بأن ذهنه منصرف إلى أمور أخرى كما كان بالفعل طوال الأسبوع.

ارتمت ماريا في مقعد ذي مسندين وقالت:

«حسناً يا نيكولاس، جدتي تعتزم أن تحرز بعض التقدم هذه المرة. ذهبت إلى حد إحضار صوفيا معها. أعني... إنني لو كنت صوفيا لكنت في حال يرثى لها.»

عبس نيكولاس وقال:

«يجب ألا تناقشي أموراً كهذه، إنك لا تزالين بعيدة عن تمييز الأمور»

قالت الآنسة سايكس في رقة:

«إنها تتظاهر فقط ولكن الواقع أنها بريئة تماماً.»

بدا الاستياء على وجه ماريا بينما ابتسم نيكولاس، وقال في لهجة رسمية:

«نعم، أنا واثق أنك على صواب يا آنسة سايكس ...»

ثم تنهد بتثاقل وقال:

«يا إلهي، ماذا سأفعل الآن؟»

واستدار ومضى خارجاً من الشقة وصفق الباب خلفه. فتنهدت ماريا كذلك وقالت في أسى:

«مسكين نيكولاس وقع أمر خطير بينه وبين مادلين، وأراهن أن ابنتها تلك المتعالية لها ضلع في ذلك.»

يوم الخميس كان على مادلين أن تذهب إلى العمل لفترة الصباح فقط. وكانت تشعر بأنها كتلة من الأعصاب المرهفة. استعادت ما قاله هاري

مرات طوال الليل. وتذكرت أنه من المقرر أن يطير نيكولاس إلى روما اليوم، فأدركت أنه ليس من المرجح أن تستطيع الاتصال.

وقررت أن تحاول ذلك ولو مرة فمدت أصابعها المرتعشة وأدارت رقم الفندق في العاشرة صباحاً. فرد عليها موظف الاستقبال وأبلغها أن السيد فيتال ليس في الفندق، وأنه يعتقد أنه ذهب إلى المصنع. واتصلت به هناك بعد أن بحثت عن الرقم في الدليل. فردت عليها عاملة التليفون :

«هل يمكن أن أتحدث إلى السيد فيتال من فضلك.»

«من المتحدث؟»

«قولي له مادلين ... إنه يعرف.»

طلبت منها العاملة أن تبقى على الخط فانتظرت بصبر نافذ. وكأنما مرت ساعات قبل أن يرد بصوت أجش وكأنه غير مصدق:

«مادلين ؟ صحيح ؟»

أوشكت السماعة أن تسقط من يدها. كان ارتياحها عظيماً. إنه لا يزال في انكلترا، لم يبرحها بعد إلى ايطاليا ، غمغمت بصوت خفيض:

«نعم، إنه أنا... كيف حالك؟»

بدا نافذ الصبر:

«على ما يرام يا مادلين ، لماذا اتصلت بي ؟»

«إنني... إنني أود أن أراك. هل لديك وقت؟»

«بالطبع، متى؟»

«حسناً، اليوم، أي وقت سيكون مناسباً لي.»

«ما رأيك أن نلتقي الآن؟ هل أنت في العمل؟»

كانت في صوته نبرة العجلة والالحاح. لقد كان هارفي محقاً، فهو يريد أن يراها بالفعل.

«نعم إنني في العمل، ولكن...»

«ولكن لا شيء... سأكون هناك.»

وأغلق السماعة قبل أن تعترض. فجلست مادلين تحدق في الهاتف يداخلها السرور، ثم استجمعت قواها. إذا كان سيأتي فالمسافة ليست بعيدة ومن

الأفضل أن تقابله في الخارج. ولم يكن لديها الكثير لتفعله فرتبت مكتبها وأعدت الرسائل في مكانها ليحملها البواب، وارتدت المعطف وخطت مترددة إلى مكتب أدريان وفتحت الباب وسألت :

«هل سيكون الأمر على ما يرام إذا انصرفت الآن؟»

تطلع إلى ساعته، وبدا مأخوذاً وهو يقول:

«الساعة لم تتجاوز العاشرة والثلث يا مادلين .»

«أعرف ذلك، ولكن هذا أمر عاجل.»

قطب أدريان جبينه وقال :

«لا بأس،هل سأراك في عطلة نهاية الأسبوع؟»

قالت في ارتباك :

«تعال إلى الشقة. فإذا كنت في المنزل تعلم أنك دائماً موضع ترحيب.»

«حسناً جداً.»

وعاد أدريان إلى خطاباته وأغلقت مادلين الباب يساورها شعور بالارتياح. اذ كانت تتوقع أسئلة كثيرة عن رحيلها المبكر.

وكان اليوم ربيعياً رائعاً في الخارج، دافئاً مشمساً، وداعب أنفها شذى الزهور من أحواض المدرسة، وشعرت فجأة بطيب الحياة وتدفقت الحرارة بعض الشيء إلى وجنتيها الشاحبتين، ولكن عينيها فضحتا حالة الانهاك والعذاب العاطفي الذي كابدته في الأيام القلائل الأخيرة.

توقفت سيارة شريدان الحمراء أمام أبواب المدرسة بعدما غادرت المبنى بثوان فهرعت إليها واندست بجوار نيكولاس

حدقت فيه طويلاً وهي تستمتع بمرآه، بينما تفحصها بدوره، ثم مس بأصابع رقيقة الهالات السوداء تحت عينيها وقال في لين :

«إنك حمقاء. أليس كذلك ؟»

لم تثق مادلين في قدرتها على الكلام واكتفت بهز رأسها. وتنهد نيكولاس ثم تطلع إلى نوافذ المدرسة ومضى بالسيارة بعزم بعيداً عن البلدة منعطفاً عن الطريق الرئيسي إلى الحارات الريفية بين سياج من الشجيرات ذات الخضرة الربيعية، أغصانها تحتك بالسيارة الكبيرة وهي تمضي... وشعرت مادلين

بمخاوفها تذوب في بهجة الصباح. كان الربيع داكناً، وهي مع الرجل الوحيد الذي تمنت أن تكون بصحبته. لا يمكن أن يحدث الآن أي ضيم.

انحرف نيكولاس بالسيارة إلى رقعة عشبية تحت أغصان شجرة بلوط ضخمة، وأوقف المحرك. واستتب السكون إلا من تغريد الطيور وصوت جرار وحيد على البعد يمر عبر الحقول. وتنهدت مادلين واستندت إلى مقعدها ثم تطلعت إلى نيكولاس ، كانت هناك خطوط من الاعياء حول عينيه، فقالت في صوت خفيض:

«ألا تزال تريدني؟»

فتأوه ووضع ذراعه على ظهر مقعدها والتفت إليها، وأخذ يربت بيده على شعرها الناعم، وقال:

«هل أريدك؟ بالله إنك لتعلمين أني أريدك.»

وأحنى رأسه وأضاف:

«كان في وسعي أن أقتلك لما فعلته بي.»

ففتحت عينيها على مضض وتطلعت إليه بلا خوف، وقالت:

«يا حبيبي، لا يمكن أن تكون على هذه الدرجة من القسوة، على نفسك بالطبع. إنني أحبك، وسأتزوجك في أي وقت تشاء»

فابتسم نصف ابتسامة وهو ينظر في عينيها وقال:

«لم أكن أستطيع قتلك في أي حال. إنك لأعز عليّ من أن أفعل ذلك، مهما كان قرارك.»

سحبت مادلين أنفاس سيكارتها وهي تشعر بالدفء والنعاس، وقالت:

«سنخبرها اليوم، بلا توقع.»

ثم تنبهت فانتصبت فجأة وقالت وعيناها مليئتان بالخوف:

«ولكنك ذاهب إلى إيطاليا اليوم»

قال وهو يجذبها إليه:

«استريحي، لست ذاهباً، على الأقل ليس اليوم.»

«ولكن... ولكن كيف؟»

فجذب كل الدبابيس من شعرها وألقاها في أرض السيارة، فأطلق بذلك

شعرها وقال:

«أعتقد أنني كنت سأتصل بك... أسدليه يا حبيبتي حتى أستطيع أن أتخلله بأصابعي.»

احمرّ وجه مادلين على نحو زادها فتنة، وأطلقت بسرعة ما بقي من عقدات شعرها وهي تمر بيدها خلاله وتساءلت:

«أهذا أفضل؟»

«أفضل بكثير..»

ثم عانقها وقال:

«بالله إنك تعلمين أنه لم يكن في وسعي أن أغادر البلاد بدون أن أراك مرة أخرى، وإن كنت قد سررت لأنك اتصلت بي. أردت أن يكون لك الشعور نفسه.»

ربتت على خده قائلة:

«أردت ذلك... ولكنني أبدو في حال لا تسر.»

قال وهو يداعب أذنها:

«إنك متعبة فقط.. ألا تستطيعين النوم؟»

هزت رأسها، فقال في لين:

«ولا أنا، إلا أن هذا يمكن علاجه بسهولة.»

فابتسمت قائلة:

«أعرف يا حبيبي... وفي أجمل صورة.»

وعانقها مرة أخرى، وكل منهما يشعر بأنه يتفانى في الآخر.

وتناولا القهوة في البلدة وعادا إلى شقة مادلين في نحو الثانية عشرة. ولم تكن ديانا في المنزل وإن كانت مادلين قد تتوقع أن تكون هناك بعد أن أغلقت الكلية أبوابها للعطلة الصيفية في اليوم السابق. قالت وهي تخلع معطفها:

«لا بدّ أنها ذهبت تتسوق. هل تودّ أن تبقى لتناول الغداء، أم هل تعود إلى الفندق علمت أن لديك ضيفة أخرى غير والدتك.»

«ومن أخبرك بذلك؟»

« هارفي ، قابلته ليلة أمس في المسرح.»
«وهل كان هذا هو السبب في أنك قررت الاتصال بي؟»

غمغمت بصدق:

«جزئياً، لكنني لم أكن أحتاج في الحقيقة إلى مبرر، فإنني ظللت أتوق إلى رؤيتك طوال الأسبوع.»

قال نيكولاس وهو يخلع معطفه:

«حسناً.»

«ولكن ماذا عن هذه الفتاة الأخرى ؟ هل كنت تحبها؟»

«كلا!»

فتنهدت مادلين وقالت :

«لا تكن وضيعاً.»

فقال وهو يجذبها إليه :

«إنها مرشحة أمي لتكون زوجة نيكولاس فيتال .»

«أوه... كان هارفي محقاً إذاً.»

قال:

«نعم، إذا كان قد قال ذلك. هل تعتقدين أنها قد تنجح في الاختبار؟»

أحكمت مادلين ذراعيها حول عنقه وغمغمت بقوة :

«لا... إذا كان لي شأن بالموضوع.»

«إن لك كل الشأن بالموضوع، كلا يا حبيبتي، أمي العزيزة، و ماريا ، و صوفيا ، كلهن في الطريق إلى روما في هذه اللحظة.»

ذهلت مادلين :

«ماذا! ولكنني كنت أظن أن والدتك في طريقها إلى أمريكا.»

«كانت، ولكنني عندما رفضت العودة إلى إيطاليا مع ماريا ، لم تستطع والدتي أن تدعها تذهب وحدها. ثم إنني كلمتهن بشأنك!»

«أحقاً فعلت؟ يا للسماء! وماذا قلن؟»

ابتسم نيكولاس ابتسامة عريضة وقال :

«صعقن في البداية، ولكنهن سيذعن. ماريا تقوم بدور كبير في العلاقات

العامة!»

دفنت مادلين وجهها في صدره وقالت هامسة :

«أوه يا نيكولاس ، إنني أحبك.»

«آمل ذلك... أعني بعد أن اشتريت تصريحاً خاصاً.»

«تصريحاً خاصاً؟ أكنت موقناً من ناحيتي؟»

هز رأسه، وبدا جاداً للحظة :

«لست موقناً على الاطلاق يا حبيبتي، ولكن عندي الأمل.»

«تحققت آمالك... أمتأكد أنت من أنك تريد ما تفعل؟»

«طبعاً، وأنت ؟»

«أوه، إنني واثقة.»

قالت ذلك وهي لا تكاد تصدق الحقيقة. فما لبث أن أبعدها عنه قائلاً :

«إذهبي وأعدي الغداء، يا حبيبتي، إنني مجرد بشر.»

نظرت مادلين في الثلاجة لترى ما يمكن أن يكون لها في الغداء. كان هناك بعض اللحم وكثير من الخضروات، فقررت شي اللحم وإعداد الخضروات في إناء الضغط بالبخار. وقدرت أن الفاكهة المعلبة والكريمة كفيلتان بإعداد الحلوى. وبعد أن اطمأنت إلى أن الوجبة يجري إعدادها عادت إلى غرفة الجلوس. وكان نيكولاس ممدداً على الأريكة يقرأ صحيفة، فابتسمت، وقالت وهي تطلق ضحكة عالية:

«لا اكاد اصدق ان كل هذا يحدث. عندما استيقظت في الصباح كنت اخشى ما ستقوله لي عندما اتصل بك تلفونياً.»

«وماذا كنت تتوقعين أن أقول؟»

هزت كتفيها وقالت :

«لا أعرف، ربما أنك لا تريد رؤيتي بعد الآن.»

«آه لو كنت تعلمين.»

قال ذلك متأوهاً وانحنى إلى الأمام ليمسك بها وهي تمر أمامه ولكنها راغت منه وهرعت إلى غرفة النوم. وقالت تناديه وهي تغلق الباب :

«لن أستغرق أكثر من دقيقة.»

واغتسلت وارتدت بنطلوناً فضفاضاً وبلوزة تريسل وراجعت في ذهنها ما ستقوله لديانا. لا بد أن مشادة ستحدث بينهما، ولكن مهما حدث فإنها تنوي أن تكون حازمة. فلا فائدة من المداراة.

وبينما هي تضع بعض الأحمر الخفيف على شفتيها انفتح الباب وظهر نيكولاس على عتبته، وقال ساخراً:

«إناء البخار يوشك أن ينفجر، وقد أطفأته ولكن يحسن أن تتحققي بنفسك من أن كل شيء على ما يرام.»

ابتسمت مادلين مداعبة وقالت:

«ألا تعرف يا حبيبي إن كان الأمر على ما يرام، أم أنك لا تفهم في شغل البيت؟»

فغمغم وهو يهز كتفيه:

«أعتقد أنني لا أفهم.»

«سيكون الأمر على ما يرام... ولكن هل سيكون لي زوج عاجز تماماً؟»

فضيق نيكولاس عينيه يساوره استياء مشوب بالسرور وهي تنهض، وقال وهو يتقدم نحوها:

«هذا يتوقف على ما تعنين بكلمة عاجز؟»

فتراجعت وهي تضحك مداعبة، وبينما كانت تفعل ذلك سمعت صوتاً في غرفة الجلوس. فتوقفت ونظرت إلى الباب متجاوزة نيكولاس، وتساءلت وهي مقطبة الجبين:

«لا تحاولي إعاقتي...»

قال نيكولاس ذلك وهو يبتسم ويواصل التقدم نحوها. فراغت منه وهي تفتعل الانزعاج. كانت عارية القدمين وكان يبدو بالغ الضخامة وهو يقترب منها واصطدم باطن ركبتيها بأحد الأسرة ففقدت توازنها وسقطت وهي تشهق على الفراش واعتذرت له متوسلة، لكنه قال:

«والآن، أريد اعتذاراً حقيقياً.»

فقالت متقطعة الأنفاس:

«حسناً، دعني أنهض.»

«لا، قولي بعدي: إنني آسفة للغاية يا سيدي، ولن يحدث ذلك مرة أخرى!»

فضحكت مادلين في خفوت وقالت:

«إنني آسفة للغاية يا حبيبي، ولن يحدث ذلك مرة أخرى.»

«لم تكن الكلمات مني أن أغيرها؟»

فأطلق يديها وجلس بجوارها قائلاً:

«لن يكون هذا ضرورياً، والواقع أنني أفضلها بطريقتي.»

ثم قال:

«ماذا ستظن ابنتك إذا وجدتنا هنا؟»

فرفعت جسمها وقالت في ارتعاشة يسيرة:

«ومن يلومها؟»

فأومأ نيكولاس برأسه واسترخى على ظهره وقال:

«لا عجب أن تساورها أفكار غريبة عن الزواج إذا كنت أنت وجو لم تتواجدا معاً في غرفة واحدة.»

جلست مادلين وقالت:

«لا أظن أنها فكرت في ذلك. ثم إن هناك كثيراً من الناس لهم فراش متباعد.»

«أظن ذلك، ولكنني أعتقد أنني لو كنت مكانها لتحريت الأمر قليلاً. كان هناك فارق رهيب بين سنيكما. وعلى فكرة، كم كان عمر ذلك الفتى... بيتر؟»

«نحو السابعة عشرة على ما أعتقد. لماذا؟»

فهز نيكولاس كتفيه وقال:

«لا أدري، ربما كان مجرد فضول مني.»

ثم ابتسم وجلس قائلاً:

«كل ما يحيط بك يفتنني.»

فرمقته بابتسامة راضية وقالت:

«أحقاً؟ هذا أمر لطيف.»

«أليس كذلك؟ إنني أتمنى لو كنت أعرف جو.»

«لماذا؟»

«حسناً، إنه يبدو لي شخصية أصيلة. ليس هناك كثير من الرجال يمكن أن يفعلوا ما فعل.»

تنهدت مادلين وقالت :

«كلا، كان جو رائعاً، لاسيا عندما أفكر كم كنت حمقاء.»

«لم تكوني حمقاء، كنت فقط صغيرة جداً، وخائفة جداً.»

فنهضت وقالت :

«هذا صحيح، من الأفضل أن أعد الغداء الآن، فستكون ديانا هنا بين لحظة وأخرى.»

وقطع كلماتها صوت الباب يغلق. وتطلعت مادلين في إعياء إلى نيكولاس، فنهض على الفور وتقدم بسرعة إلى باب الغرفة. ودخل غرفة الجلوس وهو يتوقع أن يجد ديانا ، ولكن الغرفة كانت خالية. فعاد إلى مادلين قائلاً وهو مقطب الجبين :

«لا يوجد أحد هنا.»

امتقع وجه مادلين بشكل واضح، وقالت:

«أوه... كانت هي التي دخلت إذاً عندما قلت لك إنني سمعت شيئاً.»

تجهم وجه نيكولاس ، وقال :

«هل تعنين أن ديانا كانت تقف هنا تسترق السمع طول الوقت؟»

وضعت مادلين يدها على جبهتها وقالت :

«في الغالب يا نيكولاس ، هل تدرك معنى ذلك ؟ لا بد أنها سمعت كل كلمة قلناها.»

قال نيكولاس غاضباً :

«وماذا في هذا ؟ لا بد أنها ارتاحت على الأقل لأننا لم نكن نفعل شيئاً.»

هزت مادلين رأسها كالمحمومة وقالت :

«كلا، كلا... ألا تذكر، كنا نتحدث عن جو وعن والد ديانا الحقيقي. ولست أتصوّر من حديثنا أنه كان من الصعب أن تجمع واحداً إلى واحد.»

أغلق نيكولاس للحظة وقال :

«يا إلهي، إنني لآسف يا مادلين ، لقد نسيت، إن معرفتي بديانا تجعلني أعتقد أنها قد هولت الأمر أكثر على الأرجح.»

ثم هز كتفيه قائلاً :

«هذا على الأقل يحل مشكلة إبلاغها بحقيقة أصلها ونشأتها.»

أشاحت مادلين عنه، يا لهول ما حدث، كان أجدر بها أن تعلم أن الهناء المثالي الذي كان لهما من قبل لا يمكن أن يدوم. وقال نيكولاس بحسم وهو يرتدي معطفه :

«سأذهب لاحضارها.»

التفتت إليه مادلين قائلة :

«هل لك أن تفعل ذلك ؟ إنني لا أحب فكرة ذهابها على هذا النحو.»

ابتسم لها نيكولاس مشجعاً وقال :

«ولا أنا، لا تقلقي يا حبيبتي، سيكون كل شيء على ما يرام.»

وبعد أن ذهب أخذت مادلين تتطلع من النوافذ المطلة على الحي. وشاهدت نيكولاس يخرج من المبنى، ولكن لم يكن هناك أثر لديانا . ونظر نيكولاس في اتجاهي الطريق ولم ير شيئاً. فمشى إلى سيارته واندس وراء عجلة القيادة وما لبث أن مضى بها بعد لحظات.

ومرت نصف ساعة قبل أن يعود وحده. وذهبت مادلين تفتح له الباب وتطلعت في يأس إليه. فقال وهو يفك أزرار معطفه :

«لقد تبخرت في الهواء، على ما يبدو بحثت عنها في كل مكان. من المستحيل أن تكون قد ذهبت بعيداً قبل أن أخرج. ورأيي أنها خمنت أننا سنبحث عنها فانتظرت في مكان ما من البناية حتى خرجت ثم تبعتني لترصد حركاتي بدلاً من أن أرصد حركاتها.»

غاصت مادلين في أحد المقاعد قائلة :

«وماذا نفعل الآن؟»

«ننتظر، نبدأ بتناول الغداء، ولا بد أن تعود عاجلاً أم آجلاً. فديانا ليست من الطراز الذي يهجر راحة البيت لوقت طويل.»

«أتعتقد ذلك؟»

«بالطبع... تلقت ديانا صدمة سيئة بلا شك، ولكن ليس في وسعنا أن نفعل شيئاً حتى تعود.»

صاحت مادلين في يأس :

«ولكن هل ستتركني أساعدها ؟ فأنا سبب مشكلتها في أي حال .»

هز نيكولاس قائلاً:

«لا أعرف ديانا كما تعرفينها. ولكنني أقول إنها قادرة على أن تصمد لشيء كهذا. إنها ليست فتاة مفرطة العصبية، اعتادت فقط أن تحقق أمورها بطريقتها، ولسوف تألف هذا الأمر، وقد يكون هذا أفضل للجميع. فقد تنظر إلى نظرة أرق بعد أن تعرف أن أباها لم يكن الشخص المثالي الذي ظنته.»

وتطلع إلى مادلين بفهم وتعاطف قائلاً:

«هل أبدو كوحش لا قلب له ؟»

رسمت مادلين على شفتيها نصف ابتسامة وقالت:

«كلا، إنني أدرك أنك تحاول فقط أن تجعلني أشعر بارتياح أكثر فلنتناول الغداء إذاً.»

١١ ـ ديانا فوق الشجرة

وما أن حلت الساعة الثامنة ذلك المساء حتى كانت مادلين قد فقدت أعصابها تماماً. خرجت مع نيكولاس في السيارة بعد الظهر يبحثان وينقبان في كل مكان في أوتربيري . ذهبا إلى نادي السبعينات وتفقدا سائر المقاهي بدون جدوى . لم يكن هناك أثر لديانا . وكان الجو قد بدأ يمطر في وقت تناول الشاي وأصبح هناك الآن سيل منتظم يغمر كل شيء . عادا مرتين إلى المسكن للتحقق إذا عادت أثناء غيابها، لكنهما أصيبا بخيبة أمل . ولم تستطع مادلين أن تفكر في مكان آخر يبحثان فيه.

وأخيرا قالت :

«لا أظن أنها ذهبت إلى بيت جيف .»

قطب نيكولاس جبينه قائلاً :

«أوه، نعم ، هذا الفتى الذي اصطحبناه معنا يوم الأحد، بدا صديقاً حمياً لها.»

«أجل . إنهما يخرجان معا منذ ثلاثة أشهر، وإن كان الأمر بينهما بلا جدوى . وهي لم تظهر له الود منذ أخبرها بخروجه مع ماريا ومعك، ولا أعتقد أنها خرجت معه منذ ذلك الحين. كانت مشغولة بالطبع في المسرحية ولم يكن لديها وقت.»

«حسناً ، هل لديهم هاتف ؟»

هزت مادلين رأسها:

«لاأظن ذلك ، لكنني أعتقد أن العنوان هو طريق «بوبلار». ولست موقنه تماماً من الرقم. ربما يكون ١٤.»

أدار نيكولاس السيارة واتجها في طريق المصنع وكانت أصابعه تقبض على عجلة القيادة بشدة. وشعر بالغضب إزاء ديانا ، مهما كانت مشاعرها ، لأنها تسببت لوالدتها في مثل هذا الشقاء غير الضروري. تلقت مفاجأة غير سارة ، ولكن هذا لا يخولها الحق في الفرار تاركة مادلين بدون أي وسيلة للاتصال بها. وأحس أنه يهز ديانا بقوة و يعنفها على تصرفها الذي يفتقر إلى التدبر.

وكان طريق بوبلار عبارة عن صف من المنازل ذات أبواب أمامية صفراء ونوافذ بيضاء. وكان رقم ١٤ يشبه سائر المنازل ، فيما عدا ستائره اللامعة وطلائه الجديد.

ترك نيكولاس مادلين في السيارة وذهب بنفسه إلى الباب ، ووقف تحت المظلة لتجنب السيل الذي كان ينهمر على البلدة. وجاء إلى الباب رجل في أواسط العمر بدا مدهوشا عندما رأى السيارة الأمريكية الكبيرة عند بابه ، وذلك الغريب الطويل على عتبته.

«نعم ؟ أي خدمة؟»

قال نيكولاس في لهجة ودودة :

«آمل ذلك. علمت أن هناك أسرة تسمى إميرسون تقطن في هذا المكان فهل تعرف أين؟»

«أعرف حقاً. أنا والتر إميرسون . ماذا أستطيع؟»

«هل لديك ابن يدعى جيف ؟»

بدا على الرجل القلق :

«صحيح ، ما الخبر ؟ هل حدث له شيء؟»

قال نيكولاس في صبر:

«كلا ... لاشيء من ذلك. له صديقة تدعى ديانا سكوت ، ونحن نبحث عنها.»

«حقاً ؟ ليست هنا الآن.»

قال نيكولاس يحدوه الأمل :

«هل أفهم من ذلك أنها كانت هنا؟»

«أوه، نعم ، كانت هنا من قبل ، تناولت الشاي هنا مع الأم ومعي ، وجيف بالطبع.»

جاهد نيكولاس لاحتواء صبره النافد ، قائلا :

«وأين هي الآن ؟»

«وماذا يهمك من ذلك ؟ إنها بلا أب ؟ من أنت ؟»

التفت نيكولاس وأشار إلى مادلين لتلحق بهما وقال :

«أنا صديق والدتها. هذه السيدة سكوت قادمة الآن. ديانا لم تأت إلى البيت منذ وقت الغداء . ولا نعرف أين ذهبت .»

«فهمت .»

أومأ السيد إميرسون برأسه ، ولحقت بهما مادلين ، وقال نيكولاس :

«هذا السيد إميرسون يامادلين ، يقول إن ديانا كانت هنا بعد الظهر وأنها تناولت الشاي معهم.»

شبكت مادلين يديها قائلة :

«حقا ؟ وأين هي الآن ؟»

وهنا جاءت امرأة من الممر، ذات وجه متورد ، مثقل بالمساحيق ، وشعر أشقر مصبوغ. فالتفت إليها السيد إميرسون قائلا:

«أوه... سارة ، هذه أم ديانا وصديق لها، إنهما يبحثان عن ديانا .»

قالت المرأة وهي تتطلع إليهما وتقيسهما:

«حقا ؟»

وشعرت مادلين بأنها تحسب ماذا يمكن أن تكون العلاقة بينهما وتخرج بإجابة خاطئة . فكررت توقا على أمل :

«هل يمكنك ان تخبرينا اين ديانا الآن؟»

«فهمت من ديانا أن أحداً لن ينتظر عودتها إلا في وقت متأخر . قالت إن أمامكما أمورا ستقومان بها.»

ثم التفتت إلى نيكولاس قائلة :

«و يبدو أنها كانت متضايقة من شيء. فقال جيف إنه سيخرج بها الليلة. ولما كان الجو ممطراً سمح لهما والتر بأخذ السيارة.»

وكانت نبراتها تبدو فيها السخرية الوقحة ، ولو لم تكن مادلين في حاجة إلى المعلومات لتركتها وانصرفت . وتساءل نيكولاس مثابرا:

«وأين ذهبا ؟»

غمغمت مادلين :

«ربما قطعا في الطريق شوطاً آخر بالسيارة . فقد بحثنا بالفعل في كل المقاهي .»

تساءل نيكولاس :

«هل كانت السيارة في حالة طيبة ؟» .

شدت السيدة إميرسون كتفيها وقالت :

«إنها سيارة جديدة، وهي بالطبع في حالة طيبة.»

«كل السيارات ينفد وقودها من وقت لآخر. ومع ذلك فأين تعتقدين أنهما ذهبا؟»

تنهد السيد إميرسون قائلا:

«من المحتمل أن يكون ذلك الأحمق من الغباء بحيث يذهب إلى لندن.»

صاحت مادلين :

«ماذا ؟»

حك السيد إميرسون ذقنه متفكراً:

«تحدث مرة خلال الأسبوع عن ناد ارتاده في لندن عندما كان في آخر عطلة أسبوعية. ذهب إلى هناك مع بعض الأصدقاء في سيارتهم.»

قال نيكولاس ساخراً:

«سيارتي....»

«حقا؟»

قالت ذلك السيدة إميرسون وهي مدهوشة بينما قال نيكولاس للسيد إميرسون :

«استمر ، أين هذا النادي ؟»

«في حي ، سوهو على ماأعتقد . إنك لم ترتد هذا المكان ليلاً، أليس كذلك؟»

«كلا . ولكن ربما أكون قد شاهدت المكان من السيارة.»

«هذا هو الحل الوحيد الذي يمكنني أن أفكر فيه. وإنني آسف لأننا لن نستطيع مساعدتكما أكثر من ذلك.»

«حسناً ، أعتقد أن أفضل مانفعله هو السير على الطريق في اتجاه لندن، فقد تراهما. الساعة الآن تجاوزت التاسعة ولا أظن أنهما ينويان التأخر في العودة.»

قال السيد إميرسون :

«قلت لجيف إن موعده الساعة العاشرة . أنا أقلق دائماً عندما يأخذ السيارة . طلبت منه أن يعود قبل أن تغلق المقاهي أبوابها.»

تساءلت مادلين :

«في أي ساعة ذهبا ؟»

رد السيد إميرسون :

«في نحو السادسة . وأعتقد أنكما قد تصادفانهما في الطريق.»

تطلع نيكولاس إلى مادلين قائلا :

«هل نحاول ؟»

«أوه ، نعم ، بالطبع.»

«نشكركما.»

ابتسم السيد إميرسون قائلا :

«أنا موقن أن ديانا ستكون على مايرام بصحبة جيف .»

«وأنا أيضاً.»

وأومأ نيكولاس برأسه إلى مادلين يحثها على العودة إلى السيارة . وشعرت مادلين بعيني المرأة تتبعانها فارتعدت. هل يمكن حقا أن يكون جيف أهلا للثقة كما يقول أبوه ؟ لو كان والده أشبه بوالدته لانتابها القلق حقاً.

* * * *

تطلعت ديانا بضيق إلى جيف والسيارة تنهب الأرض عائدة إلى أوتربيري . وكان المطر خارج السيارة ينهمر بغزارة لم تحدث من قبل، فشعرت باكتئاب تام. كان يوما فظيعاً . اكتشفت فيه أولا أنها ليست ابنة جوزيف سكوت على مايبدو، ثم اكتشفت ثانية أن جيف ، رغم وسامته، بدأ يثير فيها السأم.

وكان سأمها بدأ في يوم الاثنين السابق عندما ظل يحدثها طويلا في هيام عن ماريا فيتال ، ولكنها في ذلك الوقت كانت لاتزال تعتقد بأنها تغار أما الآن فهي

تعرف الحقيقة. ذهبت إلى منزل جيف اليوم لأنه الشخص الوحيد الذي شعرت بإمكان اللجوء إليه. وهي الآن تتمنى لو ذهبت إلى بيت العم أدريان . فعندما أبلغت جيف ، في يأسها ، الأول المرير ، بأمر أمها ، ضحك بالفعل. ثم لما أفاق قال لها إنه مادام نيكولاس فيتال لم يعترض فيما يبدو فلماذا تعترض هي ؟

شعرت تماماً أنها وحيدة مهجورة ، وعندما اقترح القيام بهذه الرحلة رحبت على الفور. لم تكن تعرف عندئذ كيف تواجه أمها. ولكن شعورها الآن يختلف.

قالت لجيف في سخرية :

«حسناً ، كم كان هذا المكان الذي زرناه مثيراً!»

نظر إليها جيف في غضب وأصابعه تقبض بشدة على عجلة القيادة. هو كذلك خاب أمله في ديانا ، وأراد أن يؤذي مشاعرها لسخريتها منه :

«كنت حريصة على الذهاب عندما اقترحت هذا المكان. ماذا حدث؟ ألم يكن متوافقاً مع تطلعاتك العالية؟ توقعت أن فتاة مثلك ، من بيت طيب ، لن تألف مثل هذه الظروف البدائية.»

كان صوته مفعماً بنبرة التعذيب فقالت وهي تنظر بلا اكتراث من النافذة:

«لا تكن فظاً.»

قال وهو يواصل السخرية منها:

«آسف ، هل قلت شيئاً خطأ؟ يااللسماء ...هذا المكان انتزعك على الأقل من حالة الكراهية التي كنت فيها عندما أتيت بعد الظهر.»

«إنك لاتفهم .»

«وما هذا الذي لا أفهمه. استرقت السمع على حوار بريء تماماً. فمن أين لهما أن يعرفا أنك لم تتصنتي إلى مناقشتهما. إن مسترقي السمع لايسمعون شيئاً طيباً عن أنفسهم . لا بد أنك قد سمعت بذلك.»

ضغطت ديانا شفتيها قائلة :

«أعرف ذلك . ولكن هل يمكن أن يكون صحيحا أنني طوال هذه السنوات التي كنت أعتقد فيها أنني ثمرة زواج مثالي ، كنت في الحقيقة مجرد ثمرة لحادثة عارضة في زقاق خلفي!»

«كفي عن تهويل الأمور. انسقت في التمثيل كثيرا. إنك تحاولين أن تعيشي

حياتك وكأنها فيلم كبير، أنت فيه البطلة التي يخطىء سائر القوم في حقها، اكبري ياديانا . إن أمك مجرد بشر. لقد ارتكبت خطأ حقاً، ولكن لاتدينيها على أمر يمكن أن يحدث لأي إنسان . يااللسماء، كان في وسعها أن تضعك في ملجأ، أو تدع أحدا يتبناك . ولكنها ضحت بحريتها بالزواج من رجل في سن أبيها، لمجرد إنقاذك من وصمة البنوة غير الشرعية.»

حدقت فيه ديانا . هو بالطبع محق . لماذا لم تفكر في الأمر على هذا النحو ؟ إنه صحيح . حاولت أن تضع نفسها موضع البطلة، بينما هي في الواقع جعلت من نفسها حمقاء. وتذكرت ماريا فيتال ورفقتها السهلة مع أبيها. ليس في العلاقة بينهما غيرة تصل إلى حد الامتلاك. بل وبدت ماريا مغتبطة لأن والدها عثر على شخص يريد أن يكون معه فلماذا لايمكنها أن تكون مثل ذلك بدلاً من أن تفسد بقصورها حياة والديها.

غمغمت وهي تتنهد :

«أعتقد أنني كنت أنانية.»

«حسناً، لماذا لم تجعليهما يعرفان أنك موجودة هذا الصباح!»

عضت ديانا شفتها قائلة:

«كانا معا في غرفة النوم عندما دخلت . وظننت في البداية أنهما...»

وهنا احمر وجهها وأضافت :

«ثم بدأت أنصت . وأنت تعرف الباقي .»

«وماذا كانا يفعلان ؟»

«أوه... مجرد دعابة . وكانا يبدوان سعيدين معا.»

لوى جيف قسمات وجهه قائلاً :

«هاك إذاً . لعل كلاهما يحب الآخر . اصغ إليّ : لكأنما أنا أسوق النصح للمحرومين من الحب !»

شعرت ديانا بشيء من الاسترخاء. ففي بعض الأحيان كان جيف يبدو معقولا ، وأحست بأنها ممتنة له على رأيه النزيه. ولكن من المؤسف أنه صريح هكذا في أمور أخرى. إنها لاتزال في السادسة عشرة ولا ترغب في أن تنغمس في علاقة حميمة لبعض الوقت . قال جيف :

«ينبغي لك أن تكوني قادرة على فهم مشاعر كل منها للآخر»

ألقت إليه ديانا نظرة جانبية وتساءلت :

«ولماذا ؟»

«حسنا ، أنت وأنا ...مثلاً.»

«آسفة ياجيف ، ولكن أنت وأنا، انتهى الأمر بيننا، أنا معجبة بك ولكنني لاأريد علاقة جادة مع أي فتى لعام أو نحو ذلك. أريد الانتهاء من تدريبي لأصبح سكرتيرة. وبعد ذلك قد يتوافر لي الوقت لمثل ذلك. وأعتقد أنني كبرت في هذه الأسابيع القلائل الأخيرة برغم كل شيء.»

عبس جيف غاضب، وقال بوضوح :

«لا توجد فتاة تستطيع أن تقول إنها أنهت أمرها معي.»

بدت الدهشة على وجه ديانا وظنت للحظة أنه يمزح ، وتساءلت :

«ماذا تعني ؟ أنهيت الأمر. كن عاقلاً ياجيف ، فأنت ستدخل الجامعة في الخريف . ولن يكون لديك وقت لي عندئذ.»

هز جيف كتفيه وقال :

«لماذا تريدين إنهاء الأمر بيننا ؟»

«أوه ، لاأدري ياجيف ، أعتقد أنك أكبر مني سناً بكثير على نحو لايناسبني. لاأزال طفلة ، وربما كنت محتشمة أكثر من اللازم على النحو الذي تتهمني به.»

نظر جيف في المرآة ليرقب حركة المرور وراءه ، ثم انعطف بالسيارة خارج الطريق ومضى عبر برك الماء إلى ظل سياج من الحجر. وشعرت ديانا برعدة تتملكها بغير إرادة منها ، وقالت :

«هيا ياجيف. لاتستطيع التوقف هنا. إنها لعبة قذرة. إنني أشعر بالبرودة والبلل وأريد العودة إلى البيت.»

«أتريدين ذلك الآن ؟ حسناً سأتكفل بتدفئتك . ولن تريدي عندئذ العودة إلى البيت . بل ستتوسلين لي من أجل البقاء.»

بلعت ديانا ريقها بصعوبة ، كان عليها أن تظل يقظة، لايمكن أن يكون جيف ينوي حقا لمسها. فهما الآن في أي حال يشرفان على طريق غاص بالمرور. لن يجرؤ. وشعرت الآن بأن صورة بيتها وأمها وحتى نيكولاس فيتال

أبعث بكثير على طمأنينتها من هذا الفتى الذي أدركت أنها لاتكاد تعرفه على الاطلاق . ليتها لم تكن تقول شيئا عن عدم عزمها على لقائه مرة أخرى وأجلت ذلك إلى أن يصبحا فعلاً في أوتربيري... كان هذا هو الذي بدأ الأمر كله بينهما.

وفجأة، وقبل أن تحتج، جذبها إليه، وهو يمسك بها على نحو محكم يكاد يخنقها. فحاولت الافلات بكل قوتها. تملكها الذعر وشعرت بصدود عنه لافتقاره إلى السيطرة على نفسه ، ولم تدر ماذا تفعل لايقافه.

صاحت وهي تئن :

«أرجوك ياجيف ، دعني أذهب .»

نظر إليها ساخرا وقال :

«ولماذا أفعل ذلك ؟ إنك أنت التي جريت ورائي بعد ظهر اليوم. كنت تتلهفين على شخص تبوحين له بهواجسك. كان ذلك مختلفا، أليس كذلك؟»

أخذت تتلوى في قبضته وصاحت :

«كنت أظن أنك تحبني.»

«إنني أحبك.»

«لماذا إذاً تعاملني وكأنني متشردة وضيعة.»

قالت ذلك صائحة وهي تشعر بالغضب لأنه يتهمها في فكره على هذا النحو، وليأسها وعجزها معا. وقال جيف في صوت أجش:

«لست أعاملك هكذا ياطفلتي ، لنمض معا. إن كل الفتيات يحببن شيئا من التسلية.»

أجابت بقوة :

«لست كذلك ، وإذا لمستني سأصرخ !»

اشتد الغضب بجيف ، وصاح :

«كفي عن التمثيل ياديانا ، لن تصرخي ، ثم إنها ستكون تجربة جديدة فلم أصادف مقاومة أبدا من قبل.»

اشتعلت ديانا غضباً، وفي غمرة يأسها أحنت رأسها وعضت بشدة تلك اليد التي كانت تمسك بكتفها. وبصيحة ألم تركها جيف للحظة كانت كافية لأن تدفع الباب وتقفز من السيارة فتكاد تسقط على الجانب الطيني ذي العشب. وكان

الطريق خالياً فلم تجرؤ على الانتظار ريثما تأتي سيارة من هذه الناحية. وبحركات سريعة دست نفسها بين أغصان السياج وزحفت إلى أيكة الشجر. وكانت تسمع صوت جيف يناديها ويتبعها فنهضت على قدميها وبدأت تعدو. كان أمامها بضع ثوان فقط من الحرية فاعتزمت ألا تفقدها.

وكانت الأيكة كثيفة سوداء. واصطدمت وهي تجري بعوائق لاتعرف معناها. ولم يكن هناك قمر وكان المطر لايزال يهطل بلا انقطاع.

وشعرت بشيء من الارتياح لأنها كانت ليلة مظلمة. فعلى الأقل لم يكن من السهل رؤية شبحها.

وكان كل مكان مشبعاً بماء المطر الغزير، ومالبث العشب الصغير المبتل أن تسلل إلى حذائها الخفيف وهي تعدو والطين يتطاير من حولها. وفي اندفاعتها تلك لم تفكر فيما قد يكون أمامها، إلا من أمل ضئيل في وجود بيت لأحد المزارعين ونجدة عنده. وقدرت أنها على مسافة خمسة عشر ميلاً من منزلها ، وهي مسافة أكبر من أن تحاول أن تقطعها بمفردها.

وكانت تسمع جيف وهو يخترق الأغصان وراءها ، يناديها مرة ومرات. وتساءلت عما تفعل والدتها الآن وعما إذا كان يساورها قلق بالغ بشأنها. الساعة تجاوزت التاسعة وهي لم تعد إلى المنزل منذ الصباح. وشعرت عندئذ بالأسف يتملكها على قرارها الطائش من البيت هذا الصباح. وتساءلت إذا كانت مثل هذه الحوادث تغير حياة الناس.

وخفت كثافة الأشجار ووجدت نفسها بعد لحظة في مكان فسيح. وتطلعت بإعياء حولها فشاهدت بفرح وارتياح ضوءاً على البعد القريب ، على مسافة حقل أو نحو ذلك . ولم تكن الظلمة أمامها لتظهر لها شيئاً يحول بينها وبين الخلاص فبدأت تعدو نحو مصدر الضوء.

ومالبث جيف أن خرج من أيكة الشجر بعدها بثوان. كان غضبه قد انقضى الآن ، غسله المطر الذي يبعث البرد في الأبدان. وكان يلعن نفسه على حماقة تصرفه . كانت ديانا مذعورة وسيطر عليها الهلع، وشعر بالخجل لأن الغلطة كانت غلطته. ولكن بقاءه هناك ، جالسا يستمع إليها بهدوء وهي تخرجه من حياتها، أشعل غضبه فقرر أن يلقنها درسا. ولكن هل يمكن أن تصدق أنه

كان يقصد مجرد إخافتها؟ كان يجدر به أن يدرك ، بعدما أخبرته ، أنها لم تكن في مزاج يسمح له باللهو معها ، وأحس بأنه أحمق تماماً. ياللمسكينة. لا بد أنها فقدت نصف حواسها من الذعر.

واستطاع الآن أن يرى شبحها أمامه فبدأ يعدو نحوها. وفجأة سمعها تصرخ صرخة عالية ثم تختفي . فتوقف فجأة ، وقلبه يخفق بشدة ، وعرق بارد يغمر جسده . ماذا حدث بالله؟

وبشعور الخوف قفز المسافة التي كانت بينه وبين المكان الذي اختفت فيه ديانا . وسار بحذر وهو يقترب من البقعة ، ويشعر بالحصباء تحت قدميه بدل العشب الطري الذي كان يعدو فوقه. وبدأت عيناه تعتادان الظلمة قليلاً فحاول أن يمد بصره إلى ماحوله ، وإلى حيث سقطت ديانا »

واستطاع بصعوبة أن يتبين حوله الآن أشكال مركبات وآلات ضخمة بدت له إما مركبات أو ناقلات قمامة أو ربما حتى حاملات نقالة وكانت الرؤية عسيرة وهذا المطر لايزال يمحو كل شيء. ولكنه أدرك بالتدريج ، وبالتركيز على بقعة واحدة، أن الأرض تنحدر من تحته بشدة إلى مايشبه محجرا. لابد أن ديانا سقطت في الهوة، ويمكن أن تكون قد ماتت!

انثنى على ركبتيه وانحنى على حافة المحجر ونادى :

«ديانا ... ديانا ! هل تسمعينني ؟ إذا استطعت سماعي فردي علي كرامة لله!»

كان صدى صوته يكتمه المطر، ولكن من المحقق أنه لم تكن هناك إجابة. وكرر توسله مرة أخرى ، ولكن لاشيء يجيبه إلا الصمت من جديد يقطعه تساقط المطر. فنهض مرتعداً ووقف يستجمع أفكاره ، وهو لايتبين ماذا سيفعله من بعد. كان لا بد أن يحصل على نجدة ، وبسرعة ، ولكن كيف ؟

تطلع حوله ، كان المحجر ضخماً ، ولم تكن هناك فائدة من العثور على طريق من حوله ، وربما المخاطرة بالسقوط فيه . كلا ، إن أفضل حل باق هو العودة إلى السيارة وقيادتها إلى أقرب هاتف ، وطلب سيارة إسعاف.

وركض عائدا باضطراب بعدما اتخذ قراره ، ويداه تحتكان بالأغصان ، وهو يسقط بطوله أحيانا في العشب الكثيف . ووصل أخيرا إلى السياج وشق فيه طريقه إلى الحافة العشبية حيث أوقف السيارة. وحاول تشغيلها فلم تستجب .

واشتد به الذعر وتذكر برك الماء التي كان يخوض فيها عندما أوقف السيارة ، فأدرك أن الماء بلل بعض مناطق الاشتعال ، وكان لا بد أن يمر عليها وقت لتجف. فخرج من السيارة وتطلع في اتجاهي الطريق. كانت هناك سيارات كثيرة تمر من قبل ، ولا بد أن تأتي سيارة في اتجاهه. وبالفعل ، بدت على البعد سيارة آتية من لندن . فاتخذ مكانه في وسط الطريق وأخذ يلوح بذراعيه بشدة . لا بد أن يروه ، لابد أن يتوقفوا!

أبطأت السيارة عندما لمح راكبوها جيف على ضوء المصباحين الأماميين واقتربت منه فتنفس الصعداء، وعدا إليها ملهوفا، وصاح أمام رجل وامرأة كانا يجلسان مندهشين في السيارة:

«وقع حادث . فهل تستطيع توصيلي إلى أقرب هاتف ؟»

* * * *

كان نيكولاس يقود سيارته ببطء وأنوارها الأمامية تضيء الطريق بوضوح تام . أما مادلين فكانت تجلس بجواره متوترة الأعصاب . غمغمت في قلق :

«إنها لن تشكرنا على أننا سعينا وراءها.»

«ياعزيزتي مادلين ، لا أهتم في هذه اللحظة أبدا بمشاعر ديانا. ليس من حقها أن تختفي على هذا النحو.»

تنهدت مادلين قائلة :

«أعتقد أنك على صواب ، ولكنني سأكون مسرورة إذا وجدتها في أي حال.»

وفجأة تصلب نيكولاس في مقعده ، وهتف :

«أليس هذا هو الفتى الذي كانت معه ؟»

كانا يقتربان من سيارة تقف على الجانب الآخر من الطريق ، وكان هناك فتى واقفا يتحدث إلى السائق ، وقد بدا مبتلاً ومتسخاً... من المؤكد أنه جيف .»

بردت أطراف مادلين وصاحت :

«أوه يانيكولاس ، هل تعتقد أنه وقع حادث ؟ أين ديانا؟»

«سنعرف ذلك فورا.»

كان نيكولاس قد أوقف السيارة قبل أن تخرج الكلمات من فمه ، وعبر الطريق بسرعة إلى السيارة الأخرى التي كان جيف على وشك أن يركبها .

«تطلع جيف إليهما في هلع ، وهو لايكاد يصدق أنهما شاهداه. وكانت مادلين قد جاءت خلف نيكولاس مباشرة :

«سيد فيتال ... سيدة سكوت !»

أغلق باب السيارة مرة أخرى وأخذ ينظر إلى السائق حائرا ، وصاح:

«لقد...لقد وقع حادث .... سقطت ديانا في أحد المحاجر!»

«ماذا!؟»

هتفت مادلين بالسؤال وهي تشعر بأنها أقرب إلى الاغماء والموت ، ولكنها بذلت كل ماتملك من جهد لتبقى في وعيها . وقال نيكولاس بهدوء لها:

«اثبتي...»

ثم التفت إلى جيف قائلاً :

«كم يبعد هذا المحجر من هنا؟»

«إنه ليس... ليس ببعيد... عبر هذه الأيكة من الأشجار.»

صاحت مادلين في عجب وحيرة :

«وماذا كنتما تفعلان بحق السماء قرب المحجر؟»

«فيما بعد ... فيما بعد.»

قال نيكولاس ذلك وهو يضغط ذراعها للحظة ، ثم سأل جيف :

«أين كنت ذاهبا ؟»

«هذه السيارة هناك ... تحت تلك الأشجار ... لم أستطع تشغيلها. فأشرت إلى هؤلاء الناس ، وكنت ذاهباً في طلب النجدة.»

قال الرجل في السيارة ، وكان يبدو مزارعا:

«هذا صحيح.»

فكر نيكولاس برهة ثم قال :

«هل تستطيع ياجيف أن تعطينا تعليمات بشأن الوصول إلى هذا المحجر؟»

بدا جيف شاحب الوجه ، متوترا، في وهج الأنوار الأمامية وقال :

«نعم ، أظن ذلك ، لماذا؟»

«حسناً أقترح أن تذهب أنت إلى الهاتف في طلب النجدة كما كنت تنوي ، وسأذهب أنا ومادلين للبحث عن ديانا ، ربما نتمكن من العثور عليها. وعندي بطارية في السيارة . فهل أنت متأكد أنها سقطت في المحجر؟»

بلع جيف ريقه بصعوبة وقال :

«متأكد تماماً.»

فحدقت فيه مادلين وقالت بصوت مختنق :

«سنطلب تفسيراً عن هذا ياجيف !»

قال جيف ، وهو يبدو خائفاً مروعاً تماماً:

«حاضر يا سيدة سكوت .»

أما نيكولاس فشرع يعمل فوراً ، تولى القياد كعده في العمل منذ عشرين عاماً، وتساءل:

«أين هذا المحجر ؟»

تلعثم جيف وهو يصف لها المكان ، وهتف المزارع :

«إنه مكان دافيسون القديم . لماذا لم أفكر في هذا من قبل ؟ من السهل العثور عليه. إنه مكان ضخم. لا أريد أن أثير فيكم الأمل يا سيدة سكوت ، ولكن هذا المحجر كتلة من الأطراف والنتوءات . ومن المحتمل أن تكون ابنتك سقطت لعدة أقدام فقط. سقطة تكفي لأصابتها بدوار وجعلها عاجزة عن الرد عندما ناداها هذا الفتى.»

أومأت مادلين برأسها قائلة :

«آمل أن تكون على صواب .»

مضى الرجل قائلاً ، و نيكولاس على وشك عبور الطريق لاحضار البطارية:

«في اي حال لدي حبل في صندوق السيارة فهل تود ان تأخذه معك، في حالة الوصول اليها؟»

قال نيكولاس على الفور :

«بالتأكيد ، هذه فكرة طيبة.»

فترجل المزارع من السيارة ومضى إلى صندوقها قائلاً :

«أحتفظ به دائماً لحالات الطوارىء، ففي الحارة التي نقطنها، والتي تصبح مستنقعاً في الشتاء، كثيرا ما أضطر إلى استعمالها.»

وناول نيكولاس الحبل ثم ركب السيارة قائلاً :

«هناك كشك للهاتف في الجوار القريب ، على بعد ميلين من هنا. وسيكون لديكما العون حالاً.»

«أشكرك.»

مضت السيارة وأخذ نيكولاس ومادلين ، ومعهما البطارية ، يشقان طريقهما عبر السياج وداخل الأيكة. كان المطر لايزال يهطل بشدة، فسرعان مابللهما على نحو ماحدث لجيف.

وكان الشعاع القوي من البطارية يضيء لهما الطريق وكان من السهل العثور على حافة المحجر وتبين سهولة السقوط فيه. وركع نيكولاس على يديه وركبتيه ونادى :

«ديانا .... هل تسمعينني؟»

ولم يتلق رداً فنهض وبدأ يتفقد المحجر بشعاع البطارية مضيئا كل جانب منه . وكما قال المزارع كان المحجر بمثابة صرح غير مستو انتشرت على جوانبه بروزات عظيمة من الصخر، وثمة أشجار وشجيرات متشعبة بيضاء، يقطر منها الماء، تعطيه مظهراً غريباً. وارتعدت مادلين وهي تتساءل إذا كانت ديانا حقاً في هذه الهوة السوداء. ماذا لو سقطت إلى القاع ؟ تساءلت عن عمق الهوة وافترضت أنها في عمق يتجاوز مائة قدم . أما نيكولاس فكان مثالياً في تفكيره وتصرفه. ورغم أن تفحصه البطيء للمحجر بدا كأنه استغرق ساعات ، إلا أنه لم يأخذ في الحقيقة سوى بضع دقائق قال بعدها:

«أعتقد أنني وجدتها!»

وضعت مادلين يدها على عنقها وقالت :

«أين ؟»

أشار نيكولاس بالبطارية فألقى شعاعها على الفتاة الفاقدة الوعي. كانت ترقد بين أغصان شجيرتين، وقد تدلى رأسها وامتد جسمها متأرجحا بين الشجيرتين. فتنفست مادلين الصعداء، إذ كانت المسافة نحو خمسة عشر قدماً

فقط. من المؤكد أنها لم تصب إصابة جسيمة! صاحت:

«أوه، شكراً لله! لعل السقطة أفقدتها الوعي، ولكنها لم تسقط بعيدا على الأقل.»

وتطلعت إلى نيكولاس ولكن وجهه كان يبدو متجهماً حتى في الضوء الخافت من وراء شعاع البطارية:

«ماذا حدث؟ إنها سليمة، أليس كذلك؟ لاتعتقد أنها مصابة إصابة خطيرة... أليس كذلك؟»

هز نيكولاس رأسه قائلاً:

«كلا ياحبيبتي، لا أعتقد أن إصابتها خطيرة.»

«لماذا تبدو قلقا هكذا؟»

قطب نيكولاس جبينه قائلا:

«أسمعي يامادلين، لاأريد أن أقول لك هذا، ولكن إذا أفاقت ديانا، وتحركت.»

ضغطت مادلين بيدها على فمها وقالت:

«أنت تعني أنها لن تدرك الخطر من حولها.»

«بالضبط. الأمر محتمل، والأرجح أنها لن تفيق قبل أن تصل النجدة. ولكن هل تتحمل هذه المخاطرة؟»

بلعت مادلين ريقها بصعوبة، وهي تشعر بغثيان طفيف، وقالت:

«وماهو البديل؟»

فضغط نيكولاس شفتيه وقال:

«أن أنزل أنا إليها، على الحبل، وأربطه حولها، ثم أتمكن من الصعود ورفعها أيضا. وإذا لم أستطع الصعود فإن هذا لن يهم. في وسعي الانتظار، على الأقل ستكون في حال مأمونة وهي مربوطة بالحبل - إذا ماتحركت.»

تنهدت مادلين بتثاقل وقالت:

«وهل هذا هو البديل الوحيد؟»

«هل يمكنك أن تفكري في شيء آخر؟ هيا ياحبيبتي، إننا نضيع الوقت. والآن اسمعي... سأربط هذا الحبل حول تلك الشجرة هناك. وكل ماأريده منك هو أن تسلطي عليّ شعاع البطارية وأنا أنزل.»

قبل أن يربط الحبل حول الشجرة عقد فيه عدة عقدات بطوله. فقطبت

مادلين جبينها قائلة:

«ولماذا هذه؟»

«إنها تساعد المرء على الصعود والهبوط على الحبل. فهذه العقدات بمثابة مواطىء أقدام. هاهنا بهجة السيرك كله ياسيدتي.»

كان يحاول أن يخفف عنها توترها، وكانت تعلم ذلك، وتساءلت كم من الرجال يمكن أن يخاطروا بحياتهم على هذا النحو من أجل فتاة تعاملهم دائماً بعدم اكتراث تام. أما بالنسبة الى نيكولاس فكان النزول على الحبل مهمة بطيئة، اذ مرت سنوات بدون أن يقوم بحركة شبه بهلوانية، فكان من الطبيعي أن يكون متصلباً. وأخذت «مادلين» ترقبه في قلق، وهي تخشى عليه مثلما تخشى على ديانا، وهبط إلى مكان أدنى مما فيه ديانا، وحاول أن يجد موطئا لقدمه في جدار المحجر، ولكن لم يكن هناك موطىء. وكانت هناك بدلاً من ذلك بعض الشجيرات المتشعبة، فاستطاع أن يرتكن إلى إحداها على نحو كفل له أن يطلق الحبل ويربطه حول ديانا. وكانت أسوأ لحظة تلك التي حاول فيها أن يجعل الحبل من تحتها فتحرك جسمها وأوشك أن يسقط عليه ويفقده توازنه. ولكنه أمسك بأقرب شجرة إليه واستطاع دفعها إلى حيث كانت، وتعلق في لحظة بالشجيرة وهو لاهث الأنفاس حتى تمكن من استرداد ثقته وأنفاسه.

أما مادلين فكتمت الصيحة من فمها ولم يبد ذعرها إلا من خلال اهتزاز ضوء البطارية في يدها. وأخيراً أمكن ربط ديانا بطرف الحبل على نحو مأمون. وكانت لاتزال فاقدة الوعي، واستطاع نيكولاس أن يرى ندبة قبيحة على جبهتها، ولكن فيما عدا ذلك بدت على مايرام. وكانت مبتلة تماماً بالطبع، فشعر بالقلق من احتمالات الصدمة في مثل هذه الأحوال.

وبتدبير محكم، صعد على الحبل ببطء وهو يشعر بالامتنان لأنه عقد العقدات التي كفلت مواطىء ليديه وقدميه معاً وساعدته مادلين على الصعود فوق الحافة، وظل لحظة راقدا بلا حراك على السطح الطيني. فهمست إليه وهي تمر بيدها على شعره المبتل:

«هل أنت على مايرام؟»

فتنهد ونهض على ركبتيه قائلاً:

«طبعاً مجرد عطل في الحركة. هذا كل شيء! لابد في الواقع أن أمارس رياضات أخرى غير الغولف فهذا يظهرني في حال يرثى لها.»

ساعدته مادلين على النهوض ثم تعلقت به لحظة. وقالت بصوت أجش:

«لاأدري ماذا كان بوسعي أن أفعل بدونك.»

فانحنى وقبل رأسها ثم أبعدها عنه بعزم قائلاً وهو يرتدي المعطف الذي خلعه لدى صعوده:

«أعتقد أنه يحسن بنا الآن أن نجذبها. لا أحب فكرة بقائها مكشوفة على هذا النحو.»

أومأت مادلين برأسها قائلة:

«هل يمكن أن نجذبها بدون أن تصاب بسوء؟»

أومأ نيكولاس برأسه ببطء أيضا وقال:

«أعتقد ذلك. إن جانب المحجر ينحدر إلى الداخل قليلاً. وهذا يمكننا من جذبها إلى أعلى برفق تام.»

ورغم ذلك استغرق الأمر بضع دقائق لجذب الفتاة الفاقدة الوعي. وكانت بمثابة كتلة صماء واضطر نيكولاس إلى أن يتولى معظم الجذب. وأخيرا بلغت الحافة فانحنى ورفعها ونقلها لترقد على العشب تحت الأشجار في نهاية الأيكة. وخلع معطفه ووضعه عليها وهو يمر بيديه على جسمها ليتحقق مما إذا كانت هناك عظام مكسورة ثم تطلع إلى مادلين قائلا:

«أعتقد أنها على مايرام. لاأشعر بكسور، ولكن هناك احتال الارتجاج. هل تظنين أنه يجب علينا نقلها الى السيارة؟ ستكون هناك في جو جاف على الأقل. ونحن لانريد أن نخاطر بإصابتها بالتهاب رئوي!»

أومأت مادلين برأسها. فرفع نيكولاس ديانا بين ذراعيه وحملها عبر الأشجار وهي لاتزال ملفوفة بمعطفه. وفي أعقابها كانت مادلين تضيء المصباح على أحسن ماتستطيع، ولكن نيكولاس بدا واثقا من خطو قدميه.

وبينما كانا يقتربان من السياج سمعا نفير الخطر يعلن وصول سيارة الاسعاف. فابتسم نيكولاس لمادلين مداعباً وقال:

«ها هي النجدة. إنها تصل كالعادة بعد أن ينتهي الأمر، إلاّ من الصياح.»

وكانت الساعات القليلة التالية بمثابة كابوس، فقد وصل رجال البوليس أيضا وآثروا أن يعرفوا كل التفاصيل. ونقلت ديانا مباشرة إلى سيارة الاسعاف التي نقلتها، بصحبة مادلين، إلى مستشفى أوتربيري العام. وأفاقت في السيارة ولكن كلماتها كانت تفتقر إلى المعنى، ورغم أنها عرفت مادلين فيما يبدو إلا أنها لم تتحدث إلا قليلا ثم غابت عن الوعي مرة أخرى.

وقال الطبيب الذي كان في سيارة الاسعاف إنها في حالة صدمة ولكنه لايعتقد من الفحص القصير الذي أجراه أنها مصابة في جسمها. فهي لاتعاني من عظام مكسورة، أما الندوب فهي مجرّد رضوض طفيفة.

ووضعت ديانا في جناح بناء على تعليمات نيكولاس. وكان قد تبع سيارة الاسعاف في سيارته، ومعه جيف، الذي كان البوليس قد تولى استجوابه.

وبعد التأكد من أن ديانا ستكون على مايرام، سبق جيف الى مركز البوليس للادلاء بأقواله. وبعد أن أفضى ببعض التفاصيل اكتفى الضابط بتحذيره من مغبة مثل هذا الطيش وسمح له بالعودة إلى المنزل.

وبقيت مادلين في المستشفى. ولم يكن هناك ماتستطيع أن تفعله، ولكنها قبلت بابتهاج الفراش الذي عرضته عليها الأخت الممرضة.

ولم تنم كثيراً. أما نيكولاس فقد عاد إلى فندقه. وكانت موقنة أنه يدرك الآن أنه ليس في وسعها بعد ماحدث أن يبلغا ديانا بأنهما يريدان الزواج فوراً. أفلحت ديانا في إرجاء الأمور حقا هذه المرة، ولكن بغير قصد.

١٢ - ازرق لون السعادة

وفي الصباح التالي قامت مادلين بزيارة ابنتها في غرفتها لتطمئن عليها، وكانت مستيقظة، فاعترفت لها بأسفها لأنها سببت لها كل هذا القلق، وتساءلت إذا كان نيكولاس هو الذي أخرجها من المحجر، فردت عليها بالايجاب . وما لبثت ديانا أن أمسكت بيد أمها بقوة وتساءلت :

«أكان ذلك صحيحاً ؟ ماقلتِه بشأني ؟»

أومأت مادلين برأسها وتنهدت قائلة:

«انا آسفة ياديانا، أعرف أنها كانت صدمة لك ، ولا أدري ماذا أقول.»

«لاعليك ، قال لي جيف شيئاً بالأمس أظنه حكيماً. قال إنه كان في وسعك أن تتركيني للتبني أو تضعيني في ملجأ.»

«ولكنني أحبك! [illegible] اللحظة التي تلقيتك فيها بين ذراعي. ولم يطرأ على ذهني أن أتخلص منك أبدا.»

«ويبدو أن والدي كان يعلم بكل شيء.»

«كان يعلم، لقد عشت مع جدتك ياحبيبتي وكان قلبها لينفطر حزناً لو أنها علمت. وكان جو يريد أحدا يعني به ، فعقدنا صفقة. حصل على مدبرة لمنزله وحصلت على زوج... بالاسم فقط.»

«فهمت ... ولماذا لم تخبريني ؟»

«كنت مفرطة الجبن ، ويبدو أنني أتخذ منهج أقل المقاومة في معظم الأمور.»

ضغطت ديانا على يدها وتساءلت :

«مثل الآن ؟»

«ماذا تعنين ؟»

«أعني بشأنك أنت ونيكولاس فيتال .... هل يريد حقاً أن يتزوجك؟»

«كيف اكتشفت ذلك ؟»

«كان واضحاً منذ وقت طويل . وكنت عنيدة على نحو لم أستطع معه أن أصدق. وأعتقد أنني كنت مغالية في شعوري نحوك بالامتلاك. اتهمني جيف بأنني طفلة ولكنني أعتقد أنني كبرت الآن. فعلت ماكنت ترينه صواباً طوال حياتي وكانت النتيجة أنني أصبحت شديدة الاعتماد عليك. ولو عرفت أن جو لم يكن هو والدي ربما كنت أصبحت أكثر استقلالاً . وعندما مات ازددت تعلقاً بك لأن عالمي كان يتهاوى فيما يبدو، وإنني أرى الآن أنه لم يكن كذلك . لاتدهشي ياأماه والا غيرت رأيي!»

بعد ذلك بشهرين كان اليخت ماريا كريستينا يرسو في خليج مونتي كارلو، وعلى متنه كانت مادلين تتمدد بالبيكيني في كسل. وجاء من يضع على ظهرها كوبا مثلجاً فانتفضت جالسة لتجده نيكولاس ، ابتسم لها مداعباً، وناولها كوب الشراب قائلاً:

«كانت هذه أسرع طريقة لارغامك على النهوض ، كنت تبدين بالغة الرضى وأنت راقدة.»

تنهدت مادلين في ارتياح وقالت :

«أنا راضية ياحبيبي . لم أشعر بسعادة مثل هذه من قبل في حياتي .»

«وإنني لأجد الفردوس في أي مكان تكونين فيه معي ياحبيبتي.»

واقتربت منه وأخذت تعبث بأصابعها في صدره، وتساءلت عما تفعله الفتاتان الآن. كانت ديانا وماريا قد طارتا بعد الزواج الذي عقد منذ ستة أسابيع إلى فيلينتيا مع والدة نيكولاس ، بينما طارت مادلين ونيكولاس مباشرة إلى نابولي بعد قضاء عطلة نهاية الأسبوع في باريس ، ثم أقلهما اليخت من هناك في رحلة شهر العسل بين الجزر اليونانية... قال نيكولاس في تراخ :

«ستجد تغيرا كبيراً في ديانا . ماريا عظيمة في الاصلاح، وهي تشبه جدتها. وفيما بينهما ستتبدد أية شكوك باقية في نفس ديانا. وغدا نطير إلى روما ونذهب

إلى فيليتشيا. وفي عطلة الأسبوع نعود إلى روما وأريك منزلي. هل تتطلعين إلى ذلك ؟»

«أنت تعلم هذا، بيتنا! هذا يبدو رائعاً»

«سيكون الأمر كذلك. وسنكون وحدنا لفترة. لقد وافقت والدتي على إبقاء الفتاتين معها في فيليتشيا، فهي تدرك حاجتنا إلى الانفراد.»

تنهدت مادلين وتطلعت إلى السماء الصافية. لم تكن فيها سحابة واحدة. هذا هو حقاً أفق مستقبلها.